البياتي... الذي يأتي ولا يأتي

عبد الوهاب البياتي، رائد من رواد الشعر الحديث.. ولم يتجه إلى هذا الشعر لأن شكله استهواه، بل لأنه وجد فيه أسلوبًا جديدًا يتمكن من خلاله من التعبير عن قضايا عصره.. ومشاكل الإنسان الاجتماعية والنفسية.

وكل ديوان أصدره منذ ديوان "ملائكة وشياطين" يمثل مرحلة تطورية في حياته الفنية لأنه يحرص دائمًا على الخلق والابتكار، فهو ينطلق من الرومانتيكية التي بدأ بها إلى الواقعية، وذلك لأنه كان قد اصطدم بواقع وطنه المؤلم، وتأثرت نفسه بما رآه من تمزق وضياع واغتراب.

وهو في هذا الشعر يصور الحقائق الاجتماعية ممزوجة بانفعاله الشخصي، أي تلتقي عنده الذات بالموضوع، إذًا فثورته على الشعر العمودي صدى لما يموج في نفسه من انفعالات وأحاسيس وما يعتمل في أعماقه من مشكلات روحية "هي صدى للموقف الوجودي الذي تأثر به الشاعر ذاك الحين فاصطبغت به بعض أشعاره.

والصورة عند البياتي تمثل ركنًا أساسيًا في شعره، إذ يعتمد عليها ويعتبرها قاعدة لقصيدته، وهي نوعان: صورة عرضية أو كما يقول الدكتور إحسان عباس.. صورة يحاول الشاعر أن يجمع فيها وحداتها المتنوعة وتكون غالبًا مكانية وتعتمد على المنظورات والمسموعات مثل قصيدة "سوق القرية"و"ذكريات الطفولة" و"القرية الملعونة".

والصورة الأخرى طولية وهي التي تتناول فردًا أو شبحًا يعبر من خلاله عن آلامه وأحاسيسه في خط مستقيم مثل قصيدة "القرصان" و"مسافر بلا حقائب".

ولقد وجد البياتي في النوع الثاني ضالته لاسيما الشخصيات القلقة دائمة الترحال والتنقل والتي تبحث في خلال رحلاتها عن حياة جديدة. وتعاطفه مع هذه الشخصيات يرجع إلى أنه في خلالها يستطيع أن يعبر عن نفسه القلقة المغتربة..

وفي كثير من قصائده، مثل "القرصان" و"مسافر بلا حقائب" تقابلنا هذه الشخصيات السندبادية التي تقطع البحار ليلاً ونهارًا بحثًا عن الاستقرار والاطمئنان، بحثًا عن حياة جديدة تسود فيها قيم جديدة، إنها تقضي أيامها في لا نهائية السأم والضيق، تعاني مصيرها الذي تريد أن تستجليه من خلال رؤيتها الضبابية للمستقبل باحثة عن مكانها تحت السماء محاولة التخلص من التمزق والضياع والحزن العميق..

في داخل نفسي تموت بلا رجاء

وأنا وآلاف السنين

متثائب، ضجر، حزين

سأكون، لا جدوى، سأبقى دائمًا

من لا مكان

لا وجه، لا تاريخ لي، من لا مكان

ولم تقتصر الصورة على الإنسان فقط، بل تعداها الشاعر إلى الطيور لأنها تشارك الإنسان كثرة الترحال والتحليق من آفاق علوية منطلقة، متمتعة بالحرية.. ومن هذه الصورة يجد البياتي تجارب جديدة يتمكن من خلالها النفاذ إلى آفاق فكرية أرحب يلتقي فيها الإنسان بأخيه الإنسان.

ويمتاز البياتي بقدرة فنية وذوق سليم في اختياره للكلمات ذات الدلالات الفنية المشحونة بالمعاني والتي تساعده على تكوين الصورة.. وهذا ما نفتقده في شعر بعض أقرانه من الشعراء وهو يختلف في ذلك مع التصوريين الذين يميلون إلى تجريد اللفظة من إيماءاتها.

وحب البياتي لتكوين شخصيته الفنية جعله دائم البحث عن طابع مميز لشعر يختلف عن شعر الموت وينفصل عنه وإن ظل تأثيره يمتد خلال قصائده بطريق غير مباشر.

والبياتي في ديوانه الأخير "الذي يأتي ولا يأتي" يعبر عن نفسه، فهو يستبطن تجربة الخيام ويجعلها قاعدة ينطلق منها للتعبير عن آلامه الذاتية وآلام البشرية، مصورًا القلق والعبث وما يوجد في الحياة من متناقضات كما يستمطر السماء لتحيى ميت الزرع.. ويستنجد بالآلهة القديمة لتخصب بوار الأرض.. لتعود إليها الحياة ولتعود للدنيا بكارتها التي افتقدتها بمضاجعتها الملوك.

لو جمعت أجزاء هذه الصورة الممزقة

إذن لقامت بابل المحترقة

تنفض عن أسمالها الرماد

ورف في الحدائق المعلقة

فراشة وزنبقة

وابتسمت عشتار

وهي على سريرها تداعب القيثار

وعاد أوزريس

لانطفأت أحزان حادي العيس

ونورت في سبأ بلقيس

وعادت البكارة

لهذه الدنيا التي تضاجع الملوك والحجارة

لهذه القديسة الهلوك

لو جمعت لاندلعت شرارة

في هذه الهياكل المنهارة

لزلزلت مقابر الأسمنت والحديد

والبنوك

وصاح ديك الفجر في طهران

وولد الإنسان

من زبد البحر ومن قرارة الأمواج

ومن وجع الأرض ومن تكسر الزجاج

فالبياتي في هذه القصيدة يجمع أشلاء الحياة الممزقة التي صورها في الديوان والتي صور من خلالها القلق والضياع اللذين يقاسي منهما الإنسان.. إنسان هذا العصر الذي ينتظر البعث الجديد لتدب الحياة في كل الموات، في النفوس والأرض والحقول، ولقد استخدم لتوصيل هذه الأفكار صورًا تتابعت بلا تكرار إلا ما تمليه الضرورة الفنية لتأكيد معنى من المعاني.. كما أنه استعان بالرموز التاريخية والأساطير القديمة وأسماء المدن ذات الدلالات والإيحاءات وذلك لميله الشديد بالتركيز، ومثال ذلك إرم العماد، نيسابور، بابل، وعشتار، بوذا، أورنيوس.

ورغم الصورة القائمة التي عرضها والمغلفة بالضبابية، فسندباده رغم وجود الموت في كل مكان يحذر من الفرار، ويدعو إلى ثبات الإنسان لأنه من العار أن يفر من المعركة حيث يتحدد مصيره وكيانه حتى إذا مات.. فإنه حين يموت تتوجه العزة، ودمه يضيء الطريق للزاحفين بعده.

معجزة الإنسان أن يموت واقفًا

وعيناه إلى النجوم

وأنفه مرفوع

وإن مات.. أو أودت به حرائق

الأعداء

وأن يضيء الليل وهو يتلقى ضربات

القدر المشئوم

وأن يكون سيد المصير

فالإنسان لا بد وأن يدافع عن وجوده.. والبياتي هنا أكثر إيجابية؛ إذ تخلص من نغمة الحزن التي كانت شائعة في قصائده السابقة... إنه هنا يدعو الإنسان إلى النزول إلى المعركة لينتصر على القلق والسأم والضياع، لأن ذلك خير له من أن يموت منهزمًا كالكلب تحت عجلات العار، وتتردد هذه النغمة خلال الديوان ليؤكد دعوته ويكرر نداءه.

ورؤية الشاعر للمستقبل ينبعث منها الأمل والتفاؤل، فهو ينتظر في إصرار أن يولد النور من الظلام، وأن تدب الحياة بعد الجدب، وأن يخلق من هذا العبث شيئًا جديدًا معقولاً.

الوجه والقفا لهذي العملة القديمة

توهجا، وولد الإنسان من جديد

شجيرة من خلل الرماد والجليد

مزهرة، وصيحة أطلقها وليد

الزمن الضائع في تزاحم الأضداد

يخلع عن كاهله عباءة الرماد

والبياتي في خلال رحلته يريد أن ينطلق من دائرته المحدودة إلى آفاق أوسع باحثًا عن معنى جديد لهذا العبث الذي يراه يطبق على الإنسان.. حتى يكاد يقتله.. يريد أن يمزق قناع التهريج لتبدو الحقيقة واضحة.. ولا بد أن يذيب كل مسخ في هذه الحياة.. فهو يرى أنه من المحتم الآن على الإنسان في هذا العصر، أن يختار، أن يقبض الريح ويدور الأصفار، وعليه أن يبحث عن معنى وراء عبث الحياة.

لأن الحياة في هذه الدائرة المغلقة انتحار وفناء للإنسانية.

والبياتي في هذا الديوان يضيف جهدًا فنيًا جديدًا يعمق به تجربته ويرتفع بقضيته إلى المستوى الإنساني الذي تلتقي عنده مشاعر بني الإنسان.

قراءة في شعر عبده بدوي

سأتناول في هذه الدراسة ثلاثة جوانب في شعر شاعرنا وهي: إفريقيا العروبة والإسلام، الرمز والأسطورة، ولأبدأ الآن بالجانب الأول وهو:

إفريقيا

لقد شغلت إفريقيا، بقضاياها المصيرية على طريق المستقبل، أبناءها من الأدباء أمثال محمد الفيتوري، وتاج السر؛ وجيلي عبد الرحمن، والدكتور محيي الدين صابر، ومحمد المهدي المجذوب، ولم يقتصر الأمر على أبناء إفريقيا فقط بل جذبت اهتمام الكثير من الشعراء من غير أبنائها أيضًا، ومن هؤلاء الشاعر المصري "عبده بدوي" الذي استحوذت عليه إفريقيا وما يعانيه إنسانها من أزمات، وما يشقيه من نضالات من أجل الحرية والكرامة، ولذا نراه قد أفرد لها جزءًا كبيرًا من شعره في دواوينه التي أصدرها، كما أنه أصدر أوبرا شعرية "الأرض العالية" عن قضية الإنسان الإفريقي وحبه للأرض؛ ومدى ارتباطه بها وتمسكه بترابها، وتبين صلابته أمام المستعمر الذي يحاول بشتى الطرق عن طريق المؤامرات والتفريق بين أبناء البلد الواحد للسيطرة على الأرض وما عليها من آدميين، وما في باطنها من ثروات.

ماذا كان نصيب الإنسان الإفريقي من خيرات بلاده؟

لم يجن إلا الشقاء والتعاسة، ثمرة عرقه وجهده.. بينما الرجل الأبيض ينعم بالثروات والخيرات.. وبالطبع لم يستسلم أبناء إفريقيا للرجل الأبيض بل ثاروا وحطموا أغلال العبودية وأعلنوها ثورة عارمة على الرجل الأبيض المستغل. وانطلقت الصيحات الحارة المدمرة تتردد في جنبات القارة:

إفريقيا....

إفريقيا استيقظي...

من حلمك الأسود

قد طالما نمت.. ألم تسأمي؟

....

لتنتفض جثة تاريخنا..

ولينتصب تمثال أحقادنا.

آن لهذا الأسود.... المنزوي

المتواري عن عيون السنا.

آن له أن يتحدى الورى

آن له أن يتحدى الفنا

فلتنحنِ الشمس لهاماتنا...

ولتخشع الأرض لأصواتنا...

إنا سنكسوها بأفراحنا

كما كسوناها بأحزاننا

أجل..

فإنا قد أتى دورنا

إفريقيا.....

إنا أتى دورنا [١]....

وجاء دور إفريقيا لتأخذ مسيرتها في ركب التاريخ، وانطلق المارد الأسود من قمقمه محطمًا القيد، شامخًا ساحقًا الأعداء، وأضيئت القارة بنور الحرية.. وأصبحت إفريقيا للإفريقيين وانطلق شعراء سودانيون غير الفيتوري يحرقون الكلمات لتنبت الأمل الأخضر في أرضهم. وهذه الكلمات يتضح فيها النبرة الحماسية النابعة من الجيشان العاطفي، ولكن رغم ذلك نجد نغمة حزينة في معظم هذه الأشعار.

وهذا ما لا نجده في شعر عبده بدوي.. فهو يغني لإفريقيا.. ويدق باب المستقبل في إصرار متفائل دون بكائيات أسيانة.. ففي شعره ينبت الأمل ويزدهر المستقبل.. ويرجع هذا إلى إيمانه الراسخ بقوة الإنسان الإفريقي.. تلك القوة المستمدة من حضارته القديمة العريقة.

واهتمام شاعرنا بإفريقيا يرجع إلى الخمسينيات، أيام كان بالجامعة، تلك الفترة التي كان الشباب ينادي فيها بتوحيد القطرين.. ولقد استطاع الشاعر بعد ذلك أن يكون لنفسه وجهة نظر خاصة، وتتلخص وجهة النظر هذه في "أن رسالة مصر يجب أن نتجه بها إلى الجنوب.. ووراء هذه الرسالة أن عليها أن تتوقف عن الأخذ من الشمال (أوربا) إلى العطاء بالنسبة لإفريقية". وفي هذه الفترة، كان يسود اتجاهان: أولهما

---

(1) ديوان أغاني إفريقيا للشاعر محمد الفيتوري.

الاتجاه إلى الحضارة، "المتوسطية" أي حضارة البحر الأبيض المتوسط، وثانيهما الحضارة العربية "الآسيوية" ولكن الشاعر يرفض هذين الاتجاهين، ويتخطى كذلك الاتجاه المسمى بالاتجاه "النيلي" إلى الاتجاه الإفريقي عامة.. فمصر لا يجب أن تكون للسودان فقط ولكن لإفريقيا كلها.. وكانت هذه النبرة جديدة في السياسة والشعر.. ونستطيع أن نقول إن ميل الشاعر لإفريقيا، والدفاع عنها يرجع إلى أنه يحس دائمًا بإحساس المظلومين.. ويتعاطف معهم، ويتألم لعذاباتهم.. وإذا كان حب الشاعر لإفريقيا نبت معه وهو بعيد عن أرضها فإنه عاش معه حتى سافر إلى السودان حيث أتيحت له المعايشة الكاملة لأهلها.. فازداد حبًا وارتباطًا بإفريقيا.. وظل هذا الحب ينبض في شعره دافئًا يحرك في الإنسان وجدانه؛ ويحرك فيه ذكرياته التي تفجر حنينه وشوقه:

سمراء ما زال الحنين إليك مشبوب الفكر
وعلى جبيني من حنانك راحة ظلت تمر
وبقية من ذكريات عالقات بالبصر
عن أعين سوداء يبرق في تأملها الحذر [١]

ويمضي الشاعر مبينًا سر الشوق المشبوب الفكر، ومنها نكتشف مدى انجذاب الشاعر نحو الطبيعة.. وميله إلى الصفاء والحب النقي النابع من الفطرة.. وأنه ينفر من زيف المدينة ونفاقها:

في هذه الأرض السخية عشت عمرًا مخصبًا
أسرعت خلف غزالها حتى ترامى متعبًا..
وسمعت "دوبيتا" [٢] تغني باللقاء، ورحبا
ورقصت رقص الحرب مهتاجًا عنيفًا مغضبا
وعلى صدى "دلوكة" [٣] ألفيت عمري واثبا
ومع "النوير" [٤] وقفت مشدوه التأمل معجبا
فهم الوجود الطفل يخطر في البراءة لاعبا

والشاعر يشعر في الخرطوم أنه ليس غريبًا.. بل يشعر أنه في بلده بين أهله وأحبائه، ولذا

---

(1) ديوان باقة نور.
(2) نوع من الطبول.
(3) يشبه الموال في مصر.
(4) قبيلة بجنوب السودان.

فمن الصعب أن ينسى عمره الذي قضاه فوق أرضها متجولاً بين ضواحيها.

أحسست أني في قرى مصر أدور على حنين [١]

فهويت أحتضن التراب بما ملكت من السنين

وفي قصيدة "مدينة الخرطوم" يتغنى بجمالها وسحرها غناء المحب الذي يخاف على حبيبتـــه، ويربط بينها وبين وطنه مصر والمشابهة التامة بينهما.. تلك المشابهة التي جعلته يشعر أنه في بلده، وهنا تأكيد لفكرته التي سبق أن أشرنا إليها وهي أن مصر يجب أن تعطي إفريقيا:

سمراء يا مرح الغيوم ويا ظلال الأمسيات... [٢]

طرزت تحت جفونك الوطفاء أجمل ذكريات..

وزرعت فجرك في دمي.. وغرست شمسك بين ذاتي

لله قامات الرجال تطل من عرب شداة...!

"والثوب" قُدَّ من الصباح على الحسان المترفات

ومليحة كقصيدة قد قفيت بالالتفات...!

ويستمر في وصف سمائها وأرضها ويتحدث عن "أم درمان" فجدرانها عطر وحدائقها خجولة، وسماؤها شدو.. ثم يخاطب الخرطوم التي علمت شعبها العزة والكرامة، وتعلموا منهـــا ذلـــك فطالت هاماتهم حتى لامست السماء:

علمت شعبك أن يعز فمس أطراف السماء.... [٣]

ومضى تعممه الأشعة، كالصباح على المساء...

من هنا نصل إلى سبب تفاني الشاعر في إفريقيا، وإيمانه بها، ودفاعه عـــن أخيـــه الإفريقـــي الإنسان الذي يدافع عن حقه في الحياة.. فلذا نراه في شعره يعيش مع أحداثها جميعهـــا بكـــل انفعالاته وأحاسيسه.. يعيش مع أومومبا، ونكروما، وجومو كينياتا، مع أخيـــه الإنـــسان فـــي أوغندة، والسودان، وكينيا.. مع هؤلاء جميعًا يعتصر الآلام والأحزان ولكنـــه يفجـــر منهمـــا الثورة والتمرد على الواقع المر المفروض عليهم، فالشاعر إن كان يقدم صور الأســـى فإنـــه يجعلها منطلقًا للعمل الثوري الجاد وإيقاظًا للهمم، وتفجيرًا للغيظ المكبوت في الأعماق... ففي قصيدة "الشاعر والفجر وإفريقيا" يقول فيها وقد أحزنه أن يحرم في بعـــض المـــدن بجنـــوب إفريقية على أهلها البقاء بعد غروب الشمس.. فيصور المأساة التي يعيشها الإنسان الإفريقـــي، وما يعانيه من فقر وحرمان من كل شيء، من التمني والأحلام لأن كل شيء ملـــك للرجـــل

---

(1) ديوان باقة نور.

(2) ديوان شعبي المنتصر.

(3) ديوان شعبي المنتصر.

الأبيض..

ولقد عبر عن ذلك كله بشكل جديد على القصيدة العربية.. وذلك لأن القصيدة الغنائية لم تعد تحتمل الشحنة المتفجرة التي يريد توصيلها إلى القارئ ولهذا اخترع نوعًا من القصيدة الحوارية:

لا تحلم، لا تطلب رزقًا في غير الآفاق الحمرة

فالأرض هنا، والأفق هنا، وحنين الشمس المصفرة

ملك للبيض، لحقدهم، للوجه الملتهب الحمرة (١)

ولكن الشاعر لا يخاف الموت من أجل أخيه الإنسان المظلوم الذي تهان كرامته.. فلا يطيق أن يكتم غيظه، لا يطيق أن يكتم كلمة الحق.. غير آبه بسياطهم التي تلهب ظهره:

"قد قلت: بأن المآسي دم للشعب، ونجواه الثرة!"

"قد صحت: رويدك لا تضرب ألا تطفئ من وطني عمره! (٢)"

ويزيده التعذيب إصرارًا على البقاء في المدينة حتى ولو دفع حياته ثمنًا لها.. لأنه صمم أن يرى وطنه حرًّا:

بي شيء حر يدفعني أن أشهد من وطني سحره

سأظل أحدق طول الليل هناك لكي ألقى فجره

لن أخشى الموت، وفي قلبي أمل يتفتح كالزهرة (٣)

وعندما يرى أهل "المعزل" تصميمه على عدم الرحيل، وصموده أمام قوى البغي.. يصيحون جميعًا صيحة الثورة والحرب ضد الطغاة لاستخلاص حريتهم وبذلك يؤكد الشاعر بالدور القيادي للمثقفين.. لأنهم ضمير الشعب اليقظ الذين ينيرون له الطريق ويوضحون له الرؤية..

ومن هذا يتضح تمامًا مدى ذوبان الشاعر في حب إفريقيا وأرضها.. كالحب الصوفي حتى أنه لا يقبل من أي إنسان أن ينال منها، حتى ولو كان ابنًا من أبنائها.. ففي قصيدة "الرائحة المرة" يرد فيها على شاعر إفريقي "دافيد ديوب" الذي أخذ يشكك في مجد إفريقيا ومستقبلها.. فيرد عليه على لسان إفريقيا ليؤكد له حضارتها العريقة، ومجدها التليد.. وتدعو ولدها العاق إلى الكفاح والنضال:

ولدي لا تظلم أيامي.. لا تذرف من أجلي عبرة

قد كنت جديرًا أن تلقى في عروة أيامي زهرة

---

(1) ديوان باقة نور.

(2) الديوان السابق.

(3) ديوان باقة نور.

فلقد قاتلت هنا المجهول. لقد عمقت هنا سره
دورت الشمس، دحوت الأرض. كسوت روابيها خضرة
والآن أعود إلى ماض. أعود لأيامي الحرة [١]
انظر في الأفق تراني أنهض. أكسو أوراقي خضرة
تبصر قلبي يمتد. يريح على أفق حانٍ صدره

ثم يرفع صوتًا صارخًا بأن لا شيء إلا إفريقيا الحرة.. إفريقيا التي تتمطى على صدر الزمان وتدق أبواب المجد وتطاول برأسها السماء:

وأفاقت إفريقيا العظمى
شيئًا ضخمًا
شيئًا يتمدد بعروقي شيئًا جهما
شيئًا مزروعًا أعرفه في البشرية
في بيت غزلت شرفته بخيوط عبير شرقية
في طفل مشدوه يرنو من خلف ضفائر زنجية
إفريقيا لا شيء اليوم سوى إفريقية
أحواض الشمس سنجعلها بالذرة رؤيا ذهبية
لتغطي العرى بقريتنا
لترفرف في جفن صبية
لتعيد السلم إلى قلبي
ولهذي الكرة الأرضية! [٢]

ويواصل غناءه للإنسان الإفريقي غناء نابعًا من إيمانه بقوته وصلابته التي تتحطم عليها أماني الرجل الأبيض.. الذي اغتصب أرضه، وسلبه حريته، حتى حق الكلمة ولكن إيمانه بهذا الإنسان يدفعه إلى التغني له:

قـــد غطـــى الأفـــق بقلتــــه   وامتـــد بجانــــب حريتـــــه [٣]
ومــــشى يختـــال بـــسمرته   بمــــساء نـــام بطلعتـــه

(1) الديوان السابق.
(2) ديوان شعبي المنتصر.
(3) الديوان السابق.

فهو دائمًا متفائل ببزوغ الفجر.. ففي قصيدة (زنجي) يصف قوته واعتزازه بنفسه، هذا الاعتزاز الذي جعله يمد قامته حتى يسد الأفق.. يمد قامته فقي شهامة بعلو بها على الأشجار العالية.. كان هذا قبل أن يحل الرجل الأبيض بأرضه ويغتصبها منه.. ويغتصب ابتسامته وأفراحه ولكنه متفائل لأنه يرى الفكرة التي تموج بالتمرد وعدم الرضا.. ويطل ذلك على عينيه:

فذوت أفراح طفولته	وهوت أوراق شبيبته [1]
وكساه الجوع بصفرته	ورماه العرى بزرقته
.. حتى اهتزت في فطرته	أصداه من حريته
ورأيت الحرب بسحنته	فحمدت الحرب بسحنته
ومددت العين لغايته	فإذا أفريقيا بقبضته!

وفي قصيدة (إلى أخي في السودان) يدعو أخاه في السودان إلى أن يضع يده في يده ليقتحما الصعاب، ويشقا قلب الظلم بالنيران، ويغرسا الأرض الخضراء بالحب والود.. وينثرا البسمات على الروابي الخضر.. والقصيدة لحن هادئ يهمس به في أذن أخيه السوداني:

أخي يا صحوة التاريخ في قلبي وتفكيري...
أساطيرك تحت الليل ما زالت أساطيري [2]...
وتحت ظلالك الوطفاء قد أغفت نواعيري
وفي قبلتك السمراء تلقاني بتكبيري...
تعال نشق قلب الظلم عصيانًا وبركانا..
ونكسو أرضنا الخضراء أوراقًا وألحانا...

في هذه القصيدة يدعوه إلى الثورة، إلى العمل الجاد من أجل إفريقيا ليعيدا معًا مجدها القديم، وتاريخها الحي المكتوب على الجباه السمر ذلك المجد الذي يحاول الاستعمار أن يطمسه، ويدعوه إلى أن يحمل الشعلة ويخترق قلب القارة ليضيء جنباتها:

تعال لنرفع الشعلة في أعماق إفريقيا..
ونرجع فوق هذا النهر تاريخًا لنا حيا [3]..

والشاعر يؤمن عامة بالإنسان وبقدرته على تحقيق المعجزات إذا جمع إرادته.. ووقف بها في وجه البوم والغربان التي تنهش إنسانيته.. إن كل إنسان على أرض إفريقيا في هذا العصر

---

(1) الديوان السابق.

(2) الديوان السابق.

(3) ديوان شعبي المنتصر.

مسئول عن كل آهة تصدر من أخ له في أطراف القارة. ومسئول عن كل شيء، مسئول عن كل شاب وطفل وفتاة. مسئول عن كل أخ يتعذب.. يقاسي الحرمان.. فالشاعر يستصرخ أخاه الإنسان أن يمد يده إلى الآخر الذي يتعذب بالقيد.. حتى أنه يستحث الإنسان الجديد الذي يعيش على أرض إفريقيا.. الإنسان ذا الإرادة الصلبة الذي لن يستسلم أبدًا:

الأرض تئن وكف الشعب تدق على الأرض بإصرار
صرخت بالمنجم مستعرا.. بالحقل.. بشدو الأطيار
.. أوقف ضرباتك أوقفها! فالفأس تمزق أستاري
أحرس أعماقي أحرسها! من عين التنين العاري (١)

فهذا الإنسان الذي تستصرخه الأرض وتطلب منه أن يحميها.. أن يجتث من أرضها كل نبتة خبيثة هو إنسان حر صلب.. قوي.. يلقي بالخوف وراء ظهره، هذا هو الإنسان الإفريقي الجديد على امتداد القارة.. الذي يقدمه الشاعر كإنسان خليق بانتزاع النصر من أنياب التنين:

هو إنسان حر صلب لن تقهره أبدًا أَمَه
لن يدركه حقد شرس فيدق بمسمار لحمه
لن يسلمه حقد يهوذا، لن يشكو في ضعف ظلمه (٢)

هذا هو الإنسان الإفريقي الذي يتصوره الشاعر.. الذي يضيء القارة بالابتسامة المشرقة.. والأمل المزدهر في عيون إخوته الإفريقيين الذين يعيشون فوق الأرض العالية.. والتي سبق الإشارة إليها، وهي أوبرا جديدة تمثل عملاً فنيًا دائمًا تتوفر فيه كل العناصر الفنية للعمل الناجح مضمونًا وشكلاً.. وتعتبر هذه المسرحية بحق سبقًا من ناحية الموضوع الذي يعالج قضية الإنسان الإفريقي ومن ناحية الشكل.. ولا غرابة في ذلك فالشاعر يحب أن يقدم دائمًا تجارب جديدة يثري بها الفن الشعري.

الجانب الإنساني:

الشاعر ضمير عصره وقلب بيئته.. ففي أعماله يرتسم العصر بكل جوانبه: الاجتماعية والفكرية والسياسية، ولذا فإنتاج الأدباء عامة والشعراء خاصة يعتبر مرجعًا يرجع إليه كل إنسان في أي عصر من العصور.. وليس معنى ذلك أن يقع الشاعر في دائرة التسجيل فقط مع إهمال الناحية أو يقع في إطار مشاكل بيئته أو يعبر عن ذاته..فهذا لا يكسب أعماله خصوبة، كما أن على الشاعر أن ينطلق من حدود البيئة والذاتية إلى آفاق أعم وأشمل.. آفاق تضم رحال الإنسانية وهنا يكون لأعماله صدى حيث يلتقي عندها ويتجاوب معها كل إنسان

---

(1) ديوان لا مكان للقمر .

(2) ديوان لا مكان للقمر.

في جنبات الأرض.
وأعتقد أن الانطلاق من التجربة الذاتية إلى التناول الإنساني الشامل يكسب الإنتاج العالمية التي تلح عليها الأقلام كثيرًا.
من هذا المنطلق نستطيع أن ننظر إلى أعمال الشاعر عبده بدوي لنرى على أي مدى حقق الشاعر الجانب الإنساني...
فإذا نظرنا في ديوانيه "شعبي المنتصر" و"باقة نور" نجد أن الشاعر يتغنى فيهما بالحرية ويدافع عن الضعفاء والمظلومين.. إنه يقف بجانب المهزومين مسلوبي الحرية في أي مكان.. كما أنه يرفض الشر بكل صوره ويبحث عن النقاء الإنساني في قلوب البشر.. إنه يبحث عن نقطة الخير التي تطهر الإنسان.. ولذا فهو يخاطب بشعره ــ كما قلت ــ قلب الإنسان وضميره ليدفع به نحو غايات أسمى وأنبل.. الحرية.. الخير.. الحق.. الدفاع عن المهزومين.. النقاء الإنساني.. أزمة الإنسان المعاصر.. كلها صفات إنسانية يلتقي عندها كل إنسان على المستوى البيئي والمستوى الإنساني..
وأحب أن أقف هنا لنصحب الشاعر قليلاً لنتبين المنابع الأصلية التي استقى منها الشاعر النقاء والصفاء..حب الشاعر للصفاء والطهارة والنقاء البشري يرجع إلى نشأته، فقد نشأ في إحدى قرى البحيرة (شبراخيت) حيث الناس البسطاء والخضرة والسماء الصافية والقمر الفضي الذي يكحل أجفان القرية.. لقد تعلم من كتاب الوجود الذي يفتح صفحاته لكل ذي نفس شفافة تبحث عن غايات نبيلة.. وأعتقد أن إنسانًا مثل شاعرنا نشأ في هذه البيئة المعلمة يشعر بالخوف عندما يأتي إلى المدينة، ويسيطر عليه شعور بالغربة الروحية لما يراه في المدينة من فردية وأنانية ومعاملات مغلفة بالنفاق والرياء.. ولقد عبر الشاعر عن هذا في عدة قصائد منها قصيدة "الشفق الجريح" التي يسترجع فيها ذكرياته وهو رهين الفراش؛ حيث كان مريضًا..فيعيش مع "القرية الذهبية" والطير الغناء وعندما يقف شريط ذكرياته عند المدينة يرى الوحشة والناس الجامدين ذوي العيون الباردة الخالية من الحب والحنان.

وإلى المدينة قد خطوت ورعشة
مسحورة تنداح في وجداني
قصت جناحي فارتميت بجانب
مستوحش في شارع سأمان
شرفاته لم تبتسم عن غنوة
خضراء.. عن فجر خصيب حافي
والناس فيه جامدون حديثهم
صخب، وأعينهم بغير حنان

قد أوصدوا أيامهم في غربتي

واستجمعوا في نظرة الغضبان

فهبطت في نفسي أعيش خلالها

وأغوص في الوديان والخلجان (١)

وفي قصيدة "شارع الإسكندرية" يصور فيها إحساسه (بالقرف) والضيق رغم ما في المدينة من حركة دائبة.. الناس.. والسيارات..والأنوار، لكن مظاهر الحضارة هذه لم تلفت نظره. ولم تستطع المدينة أن تغير نفسيته، لقد ظل يحتفظ بينابيع الصفاء في أعماقه يهرع إليها كلما أحس بأزمة من أزمات المدينة.. وهذا ما فعله عندما واجه في المدينة الزيف؛ لقد هرب إلى أعماقه يصاحب ذكرياته.. يتذكر قريته حيث كل شيء منها على الفطرة.. إن القرية تعيش في قلبه وتجري ذكرياتها في دمه:

حملت قريتي الحزينة في دمي

ومشيت نحو بيوتك المتزينة

فوجدت فيها غربة ووجدتني

طيرًا غريبًا ليس يلقى موطنه

فهبطت أعماقي أعاشر بينها

يأسي وخوفي والظنون المزمنة

ووجدتني فوق البشاشة والسنا

كوريقة مصفرة متغضنة

وشعرت أني سوف أسقط.. أنتهي

بين الرياح الثائرات المدجنة

فذكرت أيامي بقريتي التي

كانت على هدب النجوم ملونة

وذكرت أمي والحقول ودوحة

عاشت على أيامنا متطامنة (٢)

إن الشاعر يصور ما أصابه من حزن وأسى عندما رأى المدينة وزينتها، أحس بالضياع وسط هذا البحر الذي يموج بوسائل حياتية ينفر منها الشاعر القادم من القرية الهادئة الجميلة.

واهتمام الشعراء المعاصرين بالمدينة ظاهرة واضحة، يرجع هذا الاهتمام عند بعضهم إلى

---

(1) ديوان "باقة نور".

(2) ديوان "باقة نور".

تقليد للشعر الغربي وللشاعر إليوت خاصة.. ومنهم من تمثل في المدينة مظهرها الحضاري فراحوا يبينون الفرق بين المدينة والقرية وما يعانيه الإنسان الريفي من متاعب عندما يأتي إلى المدينة لازدحامها والسرعة التي يتسم بها كل شيء في المدينة، فالشاعر أحمد عبد المعطي حجازي يصور الإنسان الريفي الخائف من الترام.. الإنسان الذي يتملكه الخوف والفزع فيقول في قصيدة "كان لي قلب":

والناس يمضون سراعا

لا يحفلون

أشباحهم تمضي تباعا

لا ينظرون

حتى إذا مر الترام

بين الزحام

لا يفزعون

لكنني أخشى الترام

كل غريب هاهنا يخشى الترام (١)

وكما تحدث عن الترام والناس المسرعين، وصف المدينة وليلها ليبين الفرق بينهما في المدينة والقرية.. فالقرية عنده ليست رمزًا لشيء يتمثله في وجدانه فهو يتمثل القرية بمواصفاتها المادية، وهذا خلاف ما نجده عند عبده بدوي، فالقرية عنده تمثل رمزًا لمعنى أشمل، لمعنى يضم الإنسانية ويتمثل هذا المعنى في الحب الفطري والطهارة.. وهذا التمثل للقرية لازمه عندما سافر إلى السودان، فقد انجذب نحو الطبيعة الريفية الصافية والتقى مع أرواح أهل السودان المتسمين بالبساطة ـــ مثل بساطة الأرض – التي يعيشون عليها.

بعد ما تبينا المنابع التي استقى منها الشاعر النقاء والصفاء والحرية والدفاع عن المهزومين نعود فنقرر أن هذه المحاور الرئيسية التي يدور عليها شعره في دواوينه جميعها: شعبي المنتصر، باقة نور، لا مكان للقمر، كلمات غضبى، الحب والموت، أوبرا الأرض العالية، كما أن الشاعر كان يعالج بجانب أزمة الإنسان المعاصر وما يعانيه من أحزان نتيجة عوامل مختلفة سياسية أو اجتماعية أو خلقية.. هذه العوامل كان لها أثر في ضياعه وتمزق نفسيته وتهدم كيانه ويبرز هذا الجانب في ديوان لا مكان للقمر، وكلمات غضبى، والحب والموت... وإن كان الشاعر في هذه الدواوين قد عبر عن تجربة ذاتية فصور من خلالها أحزانه الخاصة إلا أنه مزج بين أحزانه وأحزان الإنسان عامة.. إنسان هذا العصر الشاحب الذي تحول إلى

---

(1) ديوان "مدينة بلا قلب".

سكين يبقر بطن الإنسان.. إن شاعرنا يعبر في شعره عما يحمله من هم وحزن هما من همومنا وأحزاننا الضاوية.. ففي قصيدة (العالم والجرذان) يقول إن العالم أصبح لا يعنيه أمر الإنسان ولا يهمه أن يحيا أو يموت.

العالم أصبح سكينًا يتوهج في قبو الظلمة
سيان عليه أن يهوي من فوق حياة أو كلمة
بيد يتوعد في عنف وبأخرى يهوي في نقمة
فإذا ما رفرف عصفور وامتد جناح في نسمة
يحشدهم ثم يعاودهم بالقتل على الجد والجهمة [١]

ويقول أيضًا في قصيدة "رغم كل شيء":
لا شيء له معنى في هذا العالم لا شيء
لا شيء له ظل أبدًا قد يلقى بعض الفيء
فالعالم يحكم قبضته الخوف الأصفر والقيء
والوهم وشيء مجهول لم يخمشه أبدًا ضوء [٢]

وحزن الشاعر ليس حزنًا ميتافيزيقيًا أو مفتعلاً كما نجد عند بعض شعرائنا المعاصرين الذين اتخذوا من الحزن مادة شعرية دون أن يصدر عن أية معاناة لتجارب ذاتية تسبب هذا الحزن، ولكنهم صدروا في حزنهم عن تقليد لموجة الحزن التي سادت الشعر الغربي لطغيان الحضارة المادية "لأن أزمة الروح لم تصل بعد في حياتنا إلى الجدة التي تجعلها منطلقًا لأحزان الشاعر" [٣]، أما الشاعر عبده بدوي فحزنه يصدر أولاً: عن معايشة لتجارب حياتية عايشها بنفسه، وثانيًا: أنه يعبر عن حزن مصري يتمدد في نفس كل إنسان على أرض مصر، ويظهر ذلك كله في كلمة "اللهم اجعله خيرًا إذا عاش لحظة ضاحكة سعيدة، ويجعله أيضًا يقرن الموت بالحب. وهذا الشعور بالحزن وبمأساوية الحياة صوره الشاعر في ديوان "الحب والموت"..وهذا الديوان سيمفونية حزينة يعزفها الشاعر على أوتار الإنسانية المتمزقة.. إن الشاعر يعبر عن رغبة الإنسان في الحياة، رغبته في أن يعيش مفردًا يجني من شجرة الحياة ثمارها الحلوة ولكن يوجد ما يمنع من تحقيق هذه الرغبة.. فالشاعر في قصيدة "رحلة صغيرة" يعبر عن أمل يتمنى أن يظل في غفوة حالمة بين الزهور والطيور، ولكنه سرعان ما يفيق

---

(1) ديوان مدينة بلا قلب.

(2) الديوان السابق.

(3) الشعر العربي المعاصر: الدكتور عز الدين إسماعيل.

على الواقع المؤلم.. واقع هذا العالم الذي يحاصر النقاء وبسمة الأمل ويميت الحياة في الكلمات ويفقد الأشياء معناها:

لكننا يا ويلتا
نفيق فوق عالم يهزنا
يضيعنا يحاصر النقاء بيننا
يشد كل ريشة في جسمنا
ويفرغ العبير من زهورنا
وينزع الوميض من حديثنا
ويكسر الرخام في أبهائنا
ويرفع التاجين عن أحلامنا
يدور دورتين... يرتمي
يهوي بسيف فوقنا
فنغتدي نصفين ضائعين
ويستمر الكون في جهامته
يحرك الحياة مثل كل يوم
قبيحة.. بليدة.. مكررة
ونحن تحت سقفها نموت، نغدو واحدا
في موتنا
في حبنا

وفي قصيدة "الأصابع المعدنية" يعبر عن الرغبة في استمرار الحياة التي يراها تضيع وتموت.. كل شيء فيها تحول إلى تماثيل للقبح الإنساني، ففي هذه القصيدة يستعيد الشاعر مع حبيبته أيامها الأولى التي شيدا فيها الدنيا وتساقيا كئوس الهوى، ثم يخبرها أن كل شيء ضاع في هذه الدنيا المحترقة الميتة، وإذا كان في هذه القصيدة يرى أن البشر تحولوا إلى تماثيل للقبح الإنساني، ففي قصيدة أخرى "الآلات العصرية" يرى أنه لا فائدة في هذه الحياة ما دام يعيش فيها أناس يتربصون بالخير.. يتربصون بكل بسمة أمل، لقد جمع الأحرف بجانب الأحرف وجمع الورود فلم توقد كلماته شمعة، وعندنا حدق أمامه ليرى شيئًا، لم يجد شيئًا إلا اللوعة والأسى، لماذا لم يجد إلا اللوعة والأسى، لأننا تحولنا إلى آلات ولعب كما يقول:

صرنا آلات عصرية
لعبًا ملأتها أيدي الناس
نستيقظ كيما نأكل، نعمل، نغفو فوق حديد الليل

إما أن نأخذ كف الكون إلى نزهة
أو أن نتقاذف بالشمس الزرقاء على الملعب
أو أن نغفو في أبهاء الأقمار
أو نقفز من فوق الأجيال
أو نبني بيتاً في كلمات خضراء
فأحاديث لا تستهويها الآذان
وكلام ليال قمراء.

وأمام هذه الرؤية للعصر الذي سحقته المادية وأيقظت في إنسانه الشر، أمام هذه الرؤية للإنسان الذي تحول إلى تمثال وإلى آلة يرى أن هذا العصر في حاجة إلى معجزة، فإن كانت المعجزة في الماضي هي إحياء الأموات فالمعجزة العصرية المطلوبة الآن هي إحياء الأحياء الذين لا يشعرون بطعم الحياة ولونها، ولذا نجد الشاعر يبحث في هذا العالم عن إنسان طيب يحمل الأمانة ويناضل من أجلها:

هذا أنا أقلب العيون
أتوه في السكون
أريد وجهًا طيبًا ليأخذ الوصية
ليشهد الرحيل
لينشر المنديل
لكنني لا أبصر الإنسان
في هذه الأزمان
أريد أن أوضح الحقيقة
أن أفتح الحقيبة
أن تنصتوا إلي
فالحق مال بين ساعدي

فالشاعر يشعر بمسئوليته تجاه أخيه الإنسان، إن ضميره مثقل بالهموم يريد أن يقول الحقيقة. يريد أن يقول الحقيقة للناس، إن تلك الحقيقة التي يمعن الآخرون في إخفائها وتشويهها، وفعلاً لا يقف الشاعر صامتاً، فنجده غير صوته ليدين الآخرين المزيفين، بل يدين العصر كله،.. إن الشاعر يرفع سيفه ويناضل مناضلة الفرسان ولا يهمه أن يكسر سيفه ويقع شهيدًا، فيكفيه أنه غرس البذرة الأولى لتنبت وتحفر وتصبح صوتاً يقلق قوى الشر، وكل ما يطلبه الشاعر هو ألا ينسى كفاحه وألا يضيع صوته هدرًا:

لكن لا تنسوا أني حاربت القتلة

والخفاش المنزوع الجفنين
والحيات الصغرى – في قدر الكف –
والثعبان الملفوف على قلب الوادي الأخضر
من أجل الجوهرة الكبرى بين الوحل
في الخط الخلفي الصامد
من أجل الضوء لليل آن أوان رحيله
من أجل حروف – إن ضمت – صارت كلمة
مياه للقلب العطشان [١]..

والشاعر لا يريد أن يقف وحده في الميدان، إنه يدعو أخاه الإنسان إلى الوقوف بجانبه للدفاع عن الجوهرة الكبرى، عن الحقيقة التي ترقبها العين الحولاء.. يدعوه إلى قتل الثعبان الملتف على قلب الوادي الأخضر فيخنقه.. ولقد رمز الشاعر لقوى الشر هذه في شعره برموز كثيرة منها "الخنزير الأعمى" و"العين الحولاء" و"الخرتيت" و"الثعبان"و"البوم" و"الغربان" ونتبين ذلك في قصيدة "الثقب" التي يصور فيها الآخرين الذين يحاصرونه ويضيقون عليه الخناق، أنهم يريدون أن يحطموا كتفه الحجري حتى يتخلى عن الكلمة الشريفة:

إني قد حوصرت اليوم
بالبوم الجاثم فوق الفجر
والعين الحولاء النظرة
والفأر الآكل من قرص الشمس
والغربان الجوعى المنقار
فإذا ما ناديتم فجناحي لن يتحرك
مصباح ضلوعي لن يتواثب [٢]

وإن كانت هذه القوى تحاصره وتحاصر الحق والخير بغية خنقه فإن الشاعر يؤكد أن البقاء له.. البقاء للحق الذي يعتبره هو رمزًا له رغم كل الصعاب والحرب المحيطة به:

لكني سوف أكون الباقي في هذا العصر
رغم القهر
رغم الحبل المتدلي
وبرغم ثياب الإعدام الحمراء

---

(1) ديوان كلمات غضبى.

(2) كلمات غضبى.

وحديث الشيخ الممطوط الأحرف
والنظرة من ثقب خلف الأبواب (١)

وفي قصيدة "تصدع الشمس" يقول للآخرين ذوي القلوب الصخرية إنهم لن يستطيعوا القضاء عليه.. لن يستطيعوا القضاء على الحق والخير والنقاء والصفاء الإنساني:

في أي مكان يهوي مني عضو ينمو آخر
حتى كبدي إن يأكلها نسر في عين الشمس
تنمو – والفجر جنين في بطن الليل
وتساقيني كأس اليوم الآتي
من قبل النقرات النارية (٢)

وهو هنا يستوحي أسطورة إيزيس وأوزيريس التي تقول: إن ست قتل أوزيريس وقطعه أربع عشرة قطعة وقذف بكل قطعة في إقليم من أقاليم مصر مما سبب خصوبة الأرض، وهي تمثل الصراع بين قوى الشر ويمثلها "ست"، وقوى الخير ويمثلها "أوزيريس" الذي مات ولكنه لم ينته؛ لأن ابنه حوريس كان امتدادًا له، ولقد خلصنا حوريس من "ست" ووضع نهاية للشر.

وفي الحقيقة أنا نلمس إيجابية الشاعر وجرأته في الدفاع عن الحق والخير عن كرامة الإنسان المتمثلة في كرامته، كما نلمس ثقته واعتزازه وهما القوة التي تدفع بالإنسان إلى النضال.. وأعتقد أن هذه الثقة وهذا الاعتزاز يصاحبانه منذ نشأته التي لها أثر كبير في شخصيته ويتضح ذلك في قصيدة "لا رحمة":

لا أسند ظهري حتى للشمس
حتى للأيام الحلوة
حتى لذوي رحم محرم
حتى للأشجار الغضبى مثلي في وجه الريح
فإنما وحدي طول العمر.
لم يمسكني أحد.. وأنا طفل – في كفه
لم ألو أحاسيسي مثل اللبلاب
لم أنشج كيما ترحمني صحراء الجوع
لم أحن لإنسان رقبة
لم أكسر من صخر الركبة

---

(1) الديوان السابق.
(2) ديوان الحب والموت.

ولهذا تنهال الضربات على كتفي الحجري [١]

من هذه القصيدة نقف على الخطوط الرئيسية في شخصية الشاعر والتي تحددت في الثقة والاعتزاز بالنفس وكبرياء الإنسان المحافظ على كرامته.

وهذه الخطوط المكونة لشخصية الشاعر جعلته يقف قويًا إيجابيًا ويطرح خلفه السلبية والانهزامية والتشاؤمية، إنه في أشد لحظات الضيق والحزن يغرس ومضات الأمل التي تنير الطريق أمام قوى الخير..

وومضة الأمل التي يتمسك بها الشاعر ويضعها كطريق للخلاص تتمثل في الحب؛ فهو العلاج للنفس الإنسانية حيث تصفو القلوب وتطهر من الشر عندئذٍ يندفع الإنسان إلى الخير، فيقول في قصيدة "درب":

يا صاحبتي
يا من عاشت خلف الأيام المضطربة
العالم لا يعطي كفيه
إلا للصوت الراعش من ذكر الحب
إلا للأهداف الغرقى به
إلا للجاثي فوق الركب الحجرية
والنازف من أقصى أعماقه
وأنا قد جئت لمحرابك
شدي بابك
فأنا والشمس على العتبة [٢]

وكما يرى الخلاص في الحب يرى أيضًا الخلاص في القوة والصلابة والثبات ونلمس ذلك في قصيدة "متى" التي يقول فيها:

لكنا تهنا في ميزان القوة والضعف
فأنا إن أصرخ في وجه الكون
وأفجر في جنبيه البغضاء
وأشق على الآفاق القمصان الزرقاء
وأحكم سيفي في تجويف الأعناق
يتمسح في أيامي.. يبكي في زهوي

---

(1) ديوان كلمات غضبى.

(2) ديوان الحب والموت.

يترضاني حتى الأعماق
ويمس بكفيه أطراف الأشياء
ويبارك من فوق الأحياء (١)

والشاعر يدعو إلى أن يشحذ الإنسان سيفه حتى يحمي نفسه في هذا العالم الذي يداس فيه الضعفاء. وهو عندما يرفع صوته بهذه الدعوة فإنما يصدر هذا الصوت من أعماق التجارب التي عاشها، إن الشاعر يدعو الإنسان إلى القوة ليحمي حقه في الحياة، وهو يتفق في هذا المعنى مع الشاعر الجاهلي "زهير ابن أبي سلمى" الذي تأخذه الحمية فيستحث الإنسان إلى حماية بيته وإلا طحنته أقدام الأقوياء.

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

والطبيعة تلعب دورًا كبيرًا في شعر عبده بدوي، فهي الصدر الحنون الذي يرتمي عليه ويلقي عليه همومه وأحزانه وأفراحه، فنجد صلة بينه وبينها حيث تتجسد إنسانًا يشاركه في أحاسيسه، فيتحدث إلى العصافير والطيور والأنهار والأشجار، ففي قصيدة "العصفور الأزرق" يتحادث والعصفور عما أصابهما من سهام أعجزتهما عن مواصلة الحياة والمقاومة ليتخلصا من القيود المحيطة بهما:

يا عصفور العمر الأزرق
قد كنا – والنور الحاني – نتقاذف هذي الدنيا من فوق الشبكة
نلقي أيدينا في الصمت الفاني خلف الدنيا
ونظل على ساعات أخرى خلف اليوم
وترانا نخرج من بيضة هذا العالم
حتى إن قلنا. سوف نظل نقاوم
وتواصلنا في وجد ناري ناعم
وغدونا أنوارًا في قلب الأنوار
وبلغنا أسرار الأسرار
أبصرنا كفا تجذبنا
أحداقًا تتزلنا من جنتنا
شاهدنا الريش على جسمنا يهوي
يسّاقط في صوت قاتم

---

(1) الديوان السابق.

رأينا أنا مقهوران

وكما عقد الشاعر في هذه القصيدة صلة مباشرة بينه وبين العصفور، نجده في قصيدة الشجرة والعصفور "يعقد صلة غير مباشرة بينه وبين الشجرة والعصفور، فالشجرة ترجو العصفور ألا يتركها وحيدة في الليلة التي أخصبت فيها فأورقت أوراقها وتفتحت ثمارها وناجي الجذر الساق" بعدما أشرفت على الموت في الليالي الماضية، فالشجرة هي رمز للحياة التي نبض قلبها فتدعو الإنسان إليها، فهي لا تبخل بهذه النبضات على العصفور العاشق:

يا هذا العصفور العاشق

فلتنزل في عمري ضيفا

ولتأكل من أثمار الأشعار

ولتتبعني.. حتى أطراف النار

لكن لا تتركني وحدي في هذا الموسم

فبقلبي شيء يمكن أن يعطى

شيء كالشمس وبدون غبار

شيء هدار

أحب أن أشير هنا إلى قسوة الشاعر في تصوير المأساة وذلك بتكثيف الحزن في صور مأساوية شديدة متتابعة، وإني أرى أن الشاعر لم يلجأ إلى ذلك بدافع مادي ولكن لاستثارة غيرة الإنسان، وإيقاظ روح الرفض فيه.. فيتحرك بإيجابية للتخلص من كل ما يهدم قيمه الخلقية والإنسانية، كما أني أرى أن الغموض الذي يلف بعض القصائد ليس غموضًا مفتعلاً لم تستدعه الضرورة الفنية، كما نجد عند بعض الشعراء، ولكنه غموض فرضته ضرورة الموضوع الذي يتناوله الشاعر، فهو يطرح في شعره قضايا تتعلق بمصير الإنسان في هذا العصر، ويدين بعضًا من هؤلاء الذين يختفون وراء الستار ويتحكمون في مصير الإنسان وفي مصير الكلمة الخضراء؛ ولذا كان لزامًا عليه أن يلجأ إلى الرموز ويغلفها بقدر الإمكان.. والشاعر لم يتركنا حيارى أمام هذه الرموز.. فقد نشر مفاتيح هذه الرموز في القصائد لتساعد المتلقي.. ومن اليسير فهم هذه الرموز.

ولنقرأ قصيدة "الزهرة الحمراء".. وأستميحكم عذرًا في ذكر القصيدة كاملة؛ وذلك لأنه من الصعب إيراد جزء منها؛ لأن القصيدة كلها وحدة كاملة ولوحة فنية جميلة:

أنا أعرف أنك ثدي الأرض

والراية من فوق القرصان الأعور

والجمرة في قلب الفقراء

والخوف بأعين من سهروا طول الليل

والخنجر مغروس حتى المقبض
والشارة في قمر مفتوح العين
واللون الآكل في كل الألوان
.. لكن "وعاء الورد" الصاعد في شط النيل
في الحائط ممتدًا حتى النجمة
لا يجذب من عينين بريقهما
إلا أن سالت تلك الفاتنة الحمراء
من بين شقيقات أخرى
من بين جميع الألوان
ولكيما تبقى جنة عطر
ويغرد عصفور في البستان العلوي
والشمس تعود إلى سقف اليوم التالي
والميت يفرد ساقيه قبل الدفن
والهدب يميل بلا خوف بعض الساعات
والدنيا تنزل عن كنف الإنسان العاني
والباب يظل بغير "الدائرة الطباشيرية"
من خوف وباء يعدو... أو يتقافز مثل المهر
.. ولكن يبقى عطر الأرض
وتظل "حمامة عمرو" في الفسطاط
والطيبة تمشي في الأسواق
ورؤوس تبقى في الأعناق
.. لا بد لتلك الآنية الخضراء
أن تجمع في جنبيها كل الألوان
حتى لا يكسرها طفل أعمى
حتى لا يشرخها الحقد الزيتي
وتطل عليها زهرة دم [١]

ومثل هذه القصيدة الرمزية التي يناقش فيها قضية فكرية عصرية. قصائد أخرى منها "الكذبة" في ديوان "كلمات غضبى".

---

(1) ديوان كلمات غضبى.

شكل القصيدة:

وأنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شكل القصيدة عند الشاعر.. من الصفات التي يلاحظها كل من يقرأ شعره أن الشاعر اقتحم بشجاعة مجالات شكل القصيدة.. وذلك بحثًا عن كل جديد يخدم فنيًّا العمل الذي يقوم به.. فمن الشكل التقليدي إلى الشكل الهرمي.. وهو يبدأ بعدد من التفصيلات تقل تدريجيًّا حتى تصل إلى تفعيلة واحدة، كما في قصيدة "لن أعود":

أنا لن أعود إلى بلادي فالجراح على جراح
وعلى دمي الليل الضرير يدب مذبوح الصباح
لا شيء من حولي سوى جثث تغص بها البطاح
وذراعي المقطوع ملقى فوق ميدان.. مباح!
فلقد قتلت بما حملت إلى عدوي من سلاح
وهويت لكن قمت أرفع من دمي
علمًا ينادي في السماء بمأتمي
ويقول إني "لن أعود!" (١)
أنا لن أعود

فالقصيدة من البحر الكامل.. الأربعة أسطر الشعرية الأولى أربع تفعيلات، ثم سطران ثلاث تفعيلات، والسطر الأخيرة تفعيلة واحدة... ثم أخيرًا انتقل إلى الشعر الحديث.. والشاعر مغرم بتقديم كل جديد.. وأعتقد أن الشاعر الخصب الجيد هو الذي يظل في بحث دائب عن كل ما يخدم الفن، كما يقول في مقدمة ديوانه "كلمات غضبى": وعلى كل فأنا حين أعود إلى هذا الشكل" يقصد الشكل الحديث" لا يعني أني أرفض الأوزان العربية السخية، ولكن يعني أني "أتجول" بينها ما دام كل هذا يخدم العمل الذي أقوم به".

وقد يسأل سائل عن الحملة التي كان يشنها الشاعر على الشعر الجديد في مجلة الرسالة.. ولماذا يكتب الشاعر الشعر الجديد الذي كان يهاجمه؟.

ويمكن الرد على هذا السؤال بأن الشاعر لم يكن يحمل على الشعر الجديد إنكارًا له وجمودًا منه عند الشعر المتجدد، فهو يرى أن الشعر لا ينبغي أن يقف عند تقاليده.. وإنما عليه أن يأخذ الكثير من الفنون التشكيلية والتعبيرية، بل لا ينبغي أن يقف عند حد القصيدة الغنائية، بل يجب أن يتعداها إلى المسرحية والملحمة والالتحام مع الموسيقى في الأوبرا ومع النثر في الأوبريت (٢)" ولكن كان هجومه على الأفكار الناسفة التي يحملها هذا الشعر، وعلى شعرائه

(1) ديوان شعبي المنتصر.

(2) مجلة الرسالة العدد ١٠٩٥.

المغرضين الذين اتخذوا التجديد سبيلاً إلى الهجوم على كل المقدسات لهدمها ونسفها.. وهذا ما تحدث عنه الشاعر في إحدى مقالاته حيث يقول: "ومع أن بعض حركات التجديد هذه كان الدافع إليها هو الرغبة في إزهار الحركة الشعرية إلا أنه كان يوجب إلى هذا الدافع دافع إلى النسف وإلى تعرية هذه الأمة وفصلها تمامًا عن تاريخ الكلمة الشعرية فيها [١]".

وقال أيضًا في مجلة الرسالة، عن التجديد في الشعر واستعمال الرموز والأساطير: "صحيح أن الشعر الآن قد وصل إلى مراحل انفجارية في الكلمة والصورة والمضمون، وأنه يستخدم الرمز والأسطورة استخدامًا ذكيًا ومربيًا في الوقت نفسه، وأنه يصل في مرحلة التحدي للتراث العربي، إلى مرحلة "شعر بنثر" وأنه يتجاوز مرحلة التحدي إلى مرحلة الرفض، وأنه يبصق في وجه أشياء كثيرة ويدين كل ما هو قيم ومضيء في حياتنا، وأن صوتاً خشناً يتردد الآن من حنجرته الذهبية، وأنه يدمن الترجمة عن بعض الكتب المقدسة وأنه وصل إلى نوع من الميوعة والتخنث جعل الشاعر يصرخ بأن جسده امرأة، وأنه يجثو بعد أن اغتصب ألف ألف اغتصاب: صحيح أن الشعر يضم كل هذا.. وأن هذا لم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ العربي، ولكن كل هذا لا يجعلنا ندين الشعر المعاصر، ولا يجعلنا ندين شكلاً من الأشكال.. ولكنه يجعلنا ندين الشعراء الذين يقفون على الأرض الرخوة، ومن الغريب أنك لا تحدق في أكثر هؤلاء الذين يملئون قلب الشعر بالمرارة، إلا ونجد أن تاريخهم يملأ بالمرارة كذلك [٢]".

من هذا يتضح لنا أن الشاعر لا يقف في وجه أي جديد بل يرحب به ويدعو له على ألا يكون الهدف منه تحطيم قيمنا الدينية وهدم تراثنا، كما أنى أعتقد بجانب ذلك أنه كتب الشعر الجديد ردًا على أصحاب الشعر الجديد الذين يتهمون كل من لا يكتب به بالعجز والضعف، ولقد أثبت الشاعر قدرته في الشعر الجديد، ويتضح ذلك في ديوانه "كلمات غضبى" و"الحب والموت" كما أثبت قدرته في الشعر المتجدد، ويتمثل ذلك في ديوانه "باقة نور"، ولقد تميز الشاعر بقاموسه الشعري الرقيق الذي يقتطع كلماته من النور.

ومن أهم خصائص الشاعر التجسيد.. ورسم الصورة المكثفة المتحركة، ويتضح ذلك في ديوان "باقة نور"، وإن كنا نلاحظ أن في بعض هذه الصور غرابة وغموضًا.. كما أنه استخدم الحوار في بعض القصائد كما في قصيدة ثنائية، لومومبا والحزن، خمسة أصدقاء، الساعة والخاتم التي يقول فيها:

هي: لا تلمس ساعتك العجلى

---

(1) مجلة الرسالة ١١١٠.

(2) مجلة الرسالة العدد ١٠٩٦.

وتشد البسمة في ثغرك
وتمد أصابع قد جمدت
وارتعشت في حمى كفك
هو: لا يذهب كفك في عنف
ليدير الخاتم في صمت
فلقد أنهيت حكايتنا

العروبة والإسلام:

كان العرب قبل الإسلام يعيشون في مجتمع متمزق فكريًّا واجتماعيًّا.. لقد كانوا يعيشون في خواء حضاري.. إلى أن جاء الإسلام فوحدهم وصنع منهم أمة قوية ذات حضارة أصيلة، يمتد تأثيرها خارج الجزيرة العربية إلى الروم والفرس أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وإلى أوربا أيام الخلفاء الراشدين..

فإذا نظرنا في المفهوم العربي عند الشاعر عبده بدوي نجد أنه ليس دعوى إلى العنصرية العربية؛ ذلك لأن العروبة عنده شكل فقط أما المضمون الأساسي الذي يبعث الحياة في هذا الشكل فهو الإسلام الذي جاء بفكر جديد يشكل العقلية العربية تشكيلاً جديدًا، وتطور بها إلى درجة عالية.. وكون حضارة جديدة أثرت تأثيرًا عظيمًا في حضارة الفرس والروم، فالشاعر يرى أن العروبة والإسلام يمتزجان ببعضهما ولا يمكن الفصل بينهما.. "وهذا المفهوم للعروبة والإسلام عند الشاعر يقوم على نقطتين: الأولى: "الإيمان المطلق بالتطور، والثانية: الإيمان المطلق بالتوازن، وذلك لأن الإيمان المطلق بدون توازن يعتبر نوعًا من الفوضى [١]".

وهنا نقطة الخلاف بينه وبين الفكر الماركسي القائم على عدم التوازن..

وهذه النظرة الشاملة تتفق مع طبيعة الشاعر المحبة للحرية وللإنسانية.. فالعالم عنده قرية صغيرة.

وهذا المفهوم الشامل الذي يضم بين جناحيه الإنسانية لا يتفق مع مفهوم رجل السياسة؛ لأنه يدعو إلى خلق التناقض ليجني ثمرة معينة.. أما الشاعر فهو يربت على الإنسانية ويخفف آلامها، وهذه النظرة الكاملة للإنسانية التي تقدس المشاعر وتحترم الإنسان عند الشاعر عبده بدوي تتفق ونظرة الشاعر إقبال.

والإسلام بهذا المفهوم – الذي بيناه – ليس مفهومًا قدريًا مفروضًا على الشاعر، ولكنه قوة تعمق إنسانيته، ومفهوم الشاعر هذا القائم على التحرر الفكري والخروج من الدائرة الضيقة يستقيه الشاعر من الفكر المعتزلي التحرري، والشاعر يؤمن بحركية الإسلام واتفاقه مع كل

---

(1) في حديث خاص مع الشاعر.

عصر، وهذا عكس القائلين بأن الإسلام جامد لا يتفق مع متطلبات الإنسان في العصر الحديث، وراحوا يهاجمونه لهدمه والقضاء على حضارتنا، واتخذ هذا الهجوم صورًا مختلفة، ففي السنوات القليلة الماضية جند بعض الكتاب أقلامهم لهذه المهمة فراحوا يزيفون الحقائق وينفثون سمومهم في التراث العربي، ويغرسون في العقول أن أسمى الحضارات هي الحضارات القديمة الفرعونية والفينيقية.. ولم تقف الأقلام الشريفة مكتوفة بل انطلقت تدافع عن الحق، ولقد كان للشاعر دور في هذا النضال، ففي إحدى مقالاته تحت عنوان "بين التراث والمعاصرة" يفند حجج المعارضين ويناقشها مناقشة منطقية مقنعة، ففي هذا المقال يبين أولاً نواحي الضغوط التي تتعرض لها الحضارة العربية، "فإذا تركنا محاولة الصراع في خيوط النسج الواحد" وجدنا أن هناك – في عالم الفكر – ضغطًا مستمرًا على الحضارة العربية، ضغطًا يأخذ وضع كسارة البندق التي تحيط بالضحية من كل الجوانب، ثم تضغط وتضغط من الخارج فإذا أضفنا هذا الضغط الخارجي إلى الضغط الداخلي الذي لم يقف إلى الآن تمامًا وجدنا الصراع والتمزق اللذين يشلان الفكر في المنطقة العربية، ووجدنا الضيق الذي يأخذ بخناق الحياة [(١)]" والشاعر في دعوته لا يطالب بالانغلاق والوقوف على حدود تراثنا ورفض الأخذ من الثقافات الأخرى، ولكنه يطالب بالأخذ من مختلف الثقافات لازدهار فكرنا، فهو يرى أنه لا بد لهذا الإنسان – الإنسان المعاصر – من أن يمد عقله وقلبه إلى أكثر من مكان بحثًا عن الزاد، ولكن ألا يجب أن نذكره بأن عليه ألا يضيع تمامًا في المناطق التي هاجر إليها بعقله وقلبه، وأنه لن يعصمنا من هذا الضياع إلا أن يكون مستوعبًا لحضارته التي يجب أن يستوعبها قبل أن يبدأ المرحلة المزهرة [(٢)]".

فنحن نرى أن هذا الموقف من الحضارة العربية ليس موقفًا جامدًا ينغلق فيه الشاعر على نفسه وعلى الحضارة العربية وتراثها، ولكن موقفه هذا يتسم بالشمول والأخذ من الثقافات الإنسانية الأخرى إلى الحد الذي لا تطغى فيه على شخصيتنا الفكرية فنضيع وتضيع معنا حضارتنا.. هذه الحضارة التي لاقت على مدى السنين الطويلة من تاريخنا المحاولات المتتابعة من الاستعمار ومن بعض الكتاب؛ ولقد سلكوا لذلك مختلف السبل لتحقيق أغراضهم، فمنهم من تناول اللغة، ومنهم من تناول النحو، ومنهم من تناول أعلام الفكر والأدب، ولقد نشطت هذه المحاولات منذ عام ١٨٨١ مع الاحتلال الإنجليزي حتى يومنا هذا تحت شعار التجديد لمواكبة التطور، فنجد في مجلة المقتطف عام ١٨٨١ تبدأ باقتراح لكتابة العلوم بلغة حديثة، وعادت القضية مرة أخرى عام ١٩٠٢ عندما ألف القاضي الإنجليزي وطور كتابًا سماه "لغة القاهرة"

(1) مجلة الرسالة العدد ١٩٠٧.

(2) مجلة الرسالة العدد ١٩٠٧.

وضع فيه قواعدها واقترح اتخاذ لغة القاهرة لغة للعلوم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية. وتجددت هذه القضية مرة أخرى عام ١٩٢٦ عندما دعا وليم ولكوكس إلى هجر اللغة العربية، ولقد تلقف هذه الدعوات ــ التي شجع لها الاستعمار ــ بعض كتابنا وراحوا يجرون تجاربهم على اللغة العربية ونحوها، ومن أحدث المحاولات في هذا المجال ما كتبه أحد الكتاب في مجلة الرسالة الجديدة تحت عنوان "جناية النحاة على اللغة" فراح يسخر من ابن مالك والسيوطي فيقول عن ابن مالك "لقد كان هم ابن مالك أن يجري وراء القراءات الشاذة ويتصيد الأمثلة النادرة واللغات البائدة لكي يقيم لكل منها بناء خاصًا وقواعد خاصة حتى يفسد مقياس الباب المطرد ويهدم الأصل العام ويحيله إلى فروع من فروع وشذوذ من شذوذ واستثناء من استثناء، وهكذا صنع ابن مالك بالنحو لكي يقيم البرهان على أنه العالم الأوحد المحقق النادر المثال [١]".

واتهم أيضًا السيوطي بالتعالي والكبرياء فيقول: "إذا كان ابن مالك مفتونًا بنفسه ومتعاليًا على النحاة فإن السيوطي كان مفتونًا بما وعته حافظته من علوم الأولين والآخرين [٢]".

من الفقرتين السابقتين نتبين مدى تهجم صاحب المقال وأمثاله على اللغة العربية لهدمها وهدم حضارتنا، رغم أن نحو هذه اللغة التي أتعبت أمثال هذا الكاتب تعتبر أرقى قواعد اللغات من ناحية الضبط وقلة الأصول ويسر المآخذ. من هذا نرى أن المحاولات لم تنقطع أبدًا لتشويه حضارتنا وفسقها لتبقى حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، ولذا نجد شاعرنا يجند قلمه للدفاع عن الحضارة العربية المظلومة نثرًا وشعرًا.

ويتصل بقضية التراث قضية أخرى مهمة أثارها بعض الكتاب وهي أن التراث العربي نشأ في أحضان الإسلام وراح هؤلاء الكتاب يدعون إلى فصل الدين عن الدولة مثلما حدث في أوربا متجاهلين أن الإسلام دين ونظام للحياة، وأنه لا يعرقل أي تقدم ولا يقف سدًّا أمام متطلبات الإنسان المعاصر، وإذا تتبعنا المقالات التي كتبها الشاعر في مجلة الرسالة نجد أنه يدافع عن التراث الروحي ويدحض حجج هؤلاء الكتاب الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة فيقول: وقد يقول البعض إن التراث العربي نشأ في أحضان الإسلام، ثم يفكر في نظرية فصل الدين عن الدولة التي تمت في أوربا، وكأن أوربا قد انفصلت تمامًا عن تراثها الروحي، قد يفكر في هذا أو يتجاهل أن الإسلام دين ونظام للحياة، وأن تراثه في الوقت نفسه يؤمن بالعدل والنظام والتقدم واحترام الوجود، وفي ضوء هذا يصعب استعارة النظم التي تفصل فصلا حادًّا وحاسمًا بين الدين والحياة، إذ التي تقضي تمامًا على الدين بسبب واحد هو أن

(1) مجلة الرسالة الجديدة عدد ١٤ – ١٩٥٥.

(2) مجلة الرسالة الجديدة عدد ١٤ – ١٩٥٥.

الدين الإسلامي يختلف اختلافًا جوهريًّا عن الدين الذي نظر إليه الشرق والغرب هذه النظرة.. صحيح أن الحياة يجب أن تتحرك، وأن حركتها لا يجب أن تتوقف باسم أثر دين من الأديان، ولكن من خلال هذا التحرك يجب ألا نقيس ظروف دين على آخر؛ لمجرد أن آخرين فكروا في هذا الأمر، ولأن أخطاء التطبيق في هذا الدين قد كثرت في بعض العصور، ذلك لأنه ما دامت عندنا قاعدة تقول بالتطور الدائم، وأنه لا يوجد شيء يعرقل هذا التطور وأن نظرتنا إلى الحكم والحياة تنبع من ظروفنا وتاريخنا، ما دامت نظرتنا إلى الحياة هذه النظرة، وما دام تراثنا الروحي قادرًا على أن يمدنا بالثورية والإنسانية فلماذا ننظر إلى التراث هذه النظرة، ولماذا يشككنا الصوت العالي المريب في كل ما يتصل بالتطور المضيء من تاريخنا (١)".

والشاعر يرى أنه إذا عجز الإنسان المعاصر عن أن يدافع عن حضارته ورضي بالحضارة المستوردة فحينئذٍ سيكون الإنسان العربي كأي مواطن يرضى بأية حضارة ليعيش وينعم بالحياة، وهذا ما يقوله شاعرنا في المقال السابق" ومهما يكن من شيء فإذا عجز الإنسان المعاصر عن أن يحب حضارته، أو إذا ظل مترددًا في القبول والرفض في هذه الفترة الذهبية من تاريخه، فإن عليه أن يجثو بعد ذلك على ركبتيه، ثم إن عليه أن يغمض عينيه وهو يطلب أن يعطوه "الحضارة الغربية" ليلبسها على جسمه وأحاسيسه، وفي هذا الحال لن تتغير صورة المواطن العربي عن صورة المواطن التركي أو أي مواطن آخر قبل أن يلبس أية حضارة نفسه وأحاسيسه (٢)".

فالشاعر يرى أن الإنسان العربي تتمثل شخصيته في تراثه ولذا يجب أن يحافظ عليه ويحبه وأن يعمل باستمرار من أجل إثرائه حتى لا يضيع فتضيع معه مقدساتنا، ولعل هذا التحمس للتراث العربي والإيمان الحار به هو ما جعل البوم والغربان التي رددها الشاعر في شعره تحاصره وتضيق عليه الخناق.

ولتنظر في النماذج التالية لنرى مدى انعكاس الأفكار المتقدمة في شعره، وأنا نلمس في هذا الشعر غيرة الشاعر على العروبة كما أنه يستحث العرب لاستعادة مجدهم العظيم تحت راية الوحدة ليحموا مقدساتنا من الضياع، إنه يطالب العرب بأن يكونوا كأجدادهم الذين أخلصوا بعقيدتهم وناضلوا من أجلها.

ففي قصيدة "جمشيد وأندلس الشرق" يربط بين جمشيد آخر السلاطين العرب على زنجبار ويوم خروج عبد الله من غرناطة مبيِّنًا أسباب هذا الانهيار وضياع الملك:

(1) مجلة الرسالة العدد ١٩٠٧.

(2) مجلة الرسالة العدد ١٩٠٧.

جمشيد إنك دمعة لما تزل بين الجفون
لكنها ستظل تمشي، ترتمي بين الغضون
إنا ذرفنا مثلها – والفجر في ليل سجين –
لما غدت غرناطة مطروقة بالفاتحين
وامتد حقد للهلال فمال بالضوء الحزين
ومشى الخليفة مطرقًا في موكب المستسلمين
ووراءه أم تقول بكل خوف الضائعين
قد آن أن تبكي هنا ملكًا مضاعًا منذ حين
مثل النساء الباكيات بكل أحزان القرون
قد عاد عبد الله يبكي هاهنا بين السكون
من قلب جمشيد المعذب.. قلب جمشيد الطعين
سيظل يبكي هاهنا في عصرنا.. عصر الأنين
يبكي العروبة والسماحة.. والمآذن والسنين (١)

وإذا كان الشاعر في هذه القصيدة يأسى لضياع المجد العربي فهو يأمل أن يعود؛ لأنه يؤمن بأن التمسك بالعروبة والإسلام هو الملاذ الوحيد والنجاة، وهو الكفيل بإرجاع المجد العربي القديم.. ففي قصيدة "القرية الخالدة". يتحدث عن مصر الفرعونية عن مصر العربية.

فيعبر عن نبض الحياة العربية وقوتها فيقول (٢):

أبصرت عروبتها الحية
في الأعماق الإنسانية
في الأشواق الروحانية
في دنيا سكرى سحرية
في قطرة ضوء منسية
في الحب يعانق أغنية
وعقود مآذن فجرية

---

(1) ديوان "لا مكان للقمر".

(2) ديوان "لا مكان للقمر".

في آسيا.. في إفريقيا

ما زلت أراها بين أبي

كنضارة فجر مرتقب

في قريتنا

وفي قصيدة "الوطن العربي" [١] يعبر الشاعر عن أمنية من أمانيه التي يرى فيها أنها السبيل الوحيد لاستعادة عظمة العرب والإسلام، هذه الأمنية هي الوحدة العربية الكاملة ليسود العرب أمة قوية مرهوبة الجانب، وتؤثر في العالم كما كانت من قبل:

غدا سوف تورق كل النفوس	وتحنـــو بأحلامهـــا الزاهـــرة
وتخفـــق أجنحـــة للـــسلام	على صـــدر أيامنـــا الـــساحرة
ويجتمع الـــشرق فـــي فكـــرة	كما جمع الهـــدب فـــي دائـــرة
لقد ألقيت بذرة مـــن ضـــياء	فنمـــت أغاريـــدها الغـــائرة
بأعماقهـــا عـــرب ســـائرون	إلـــى وحـــدة حـــرة قـــاهرة

بعد هذا العرض للمفهوم العربي الإسلامي الذي ينتمي إليه الشاعر أرى أن هذا الفهم لا يقف حائلاً بينه وبين الثقافات الأخرى، فالشاعر يطل على جميع نوافـذ الثقافـة الـشرقية والإفريقية والغربية.

فهو يستوحي من هذه الثقافات ويطوع ما فيها للشعر.

ويتضح ذلك في قصيدة "كلمات كونفوشيوسية":

"لا تستعمل سكين الثور

من أجل رقاب الديكة"

"حريتنا مثل البئر

من يسرف فيها تنضب"

"اللون الأبيض قد يتلطخ

من غير ظهور اللون الأسود فيه"

"أشغل نفسك

فلأن تتلاعب يا هذا بالنرد

خير من أن تتبطل" [١]

---

(1) ديوان "باقة نور".

وكذلك يتضح في قصيدة "حكم من الهيتوباديا" التي يقول فيها:

"ما دمنا نفتقد العقلاء

فسيحكم.. من لا يمتلك الفطنة"

حتى لا تزجر

لا تحضر إلا أن تدعى

لا ترفع صوتاً دون سؤال" (٢)

والشاعر عندما يختار موضوعات قصائده كما في القصيدتين السابقتين فإنما يختار ما يتناسب مع الذوق العام، واتصالنا بالثقافات الإنسانية الأخرى أمر لا بد منه، ولكن يجب أن نحسن الاختيار فيما ننقله، فيجب أن يتفق مع قيمنا الخلقية والدينية، وهذا لا يتأتى إلا بوعي كتابنا وأدبائنا الحريصين على إثراء حضارتنا.. وهذا ما اتسم به شاعرنا في كتاباته وشعره.

---

(1) كلمات غضبى.

(2) كلمات غضبى.

الرمز والأسطورة

من الظواهر البارزة في الشعر الحديث استخدام الرمز والأسطورة مثل "سيسيف وأوريست وعشتروت وأيوب والسندباد. ولقد أغرق معظم الشعراء المعاصرين في ذلك إلى الحد الذي أفقد الرمز دلالته؛ لأنه أصبح يوضع ــ بشكل آلي دون النظر إلى ضرورة ــ ارتباط الرمز بالتجربة الشعرية مما يجعله متنافرًا مع السياق الشعري ويفقده بالتالي طابعه الشعري، وذلك لأن استخدام الرمز في السياق الشعري يضفي عليه شاعرية ويكسبه قوة، لأن الرمز ما هو إلا "أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف وتحديد أبعاده النفسية" (١). فعلى ضوء الإحساس الشعوري يجب أن ننظر إلى الرمز حتى يمكن فهمه وتفسيره، وكذلك يجب أن تكون الرموز والأساطير التاريخية القديمة متفقة والتجربة العصرية التي يتناولها الشاعر حتى تحقق الهدف الذي استعملت من أجله؛ وذلك لأن الأساطير عندما تستخدم شعريًّا تخرج عن دلالتها الأسطورية التاريخية البدائية إلى دلالة جديدة يتفتح في قلبها مضمون وجداني فكري أو فلسفي أو اجتماعي يستمد عناصره من مكتسبات الحضارة بوجهها الإيجابي، ويتفتح في قلب هذا المضمون نبع من الضياء الهادئ الموجه إلى مطارح الخصب والتجدد والتطور الخالق في حضارتنا" (٢).

وهذا الخصب والتجدد لن يتوفرا للرمز إلا إذا كان متفقًا مع التجربة العصرية التي عالجها الشاعر، وهذا ما لم يلتفت إليه بعض الشعراء، فقد أسرفوا في استعمال الرموز بشكل أثر على القصيدة فنيًّا. كما لوحظ أيضًا الإسراف في استخدام الرموز الدينية بشكل واضح حتى أنها تحولت إلى أسماء دواوين؛ ووضعت القصائد بآيات من الأسفار، رغم عدم وجود ضرورة فنية تفرض ذلك:

على ضوء ما سبق يمكن أن ننظر في موقف الشاعر عبده بدوي من الرموز والأسطورة لنرى إلى أي مدى وصل في استخدامه لهما، ولنرى أيضًا كيف استخدمهما؟ وهل استخدم الرموز المتداولة المستهلكة أم استخدم رموزًا أخرى؟ وهل دعت الضرورة الفنية إلى استخدام هذه الرموز؟

عندما ننظر في شعر عبده بدوي نجد أنه لم يستخدم الرموز التي شاع استخدامها وفقدت تأثيرها، ولكنه استخدم بدلاً منها رموزًا خاصة استدعتها ضرورة التجربة التي يتناولها، ولقد جاءت هذه الرموز متفقة مع السياق الشعري، ومن هذه الرموز: البوم والغربان

---

(1) الشعر العربي المعاصر: د. عز الدين إسماعيل.

(2) دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي: حسين مروة.

والثعبان والعين الحولاء.. الجوهرة، الوردة الحمراء، الدانوب الأزرق، الدون الهادئ. كما أنه استخدم أسماء وأحداثًا تاريخية إسلامية ذات دلالات تاريخية، وهذا ما لم يستخدمه الشعراء الآخرون، ومن هذه الأسماء "جمشيد، وعبد الرحمن الداخل، ومقتل عثمان بن عفان وعمرو ابن العاص. أما بالنسبة للأسطورة فهو لم يذكرها مباشرة أحيانًا ولكنه يستوحيها ويستلهمها مسقطًا عليها انفعالاته ومشاعره متأثرًا بأحداث عصره، ونرى ذلك في "قصة نكروما" والقصيدة تدور حول الأسطورة الإفريقية القائلة بأن نكروما اعتقله الإنجليز في بلاده، فكان يخرج من السجن في صورة قط ثم يصيح "يا غانة" فيرد عليه كل شيء.. السماء والأرض وحقول الكاكاو والمناجم والغابات... فإذا ما اطمأن على بلاده عاد إلى السجن، ولقد تلقف الشعب هذه الأسطورة، وأضاف عليها، ووضع لها لحنًا وكلمات شعبية أوردها الشاعر في ديوان "باقة نور":

جسد كوامي نكروما في السجن
وروحه تهيم في سماء البلاد
فإذا ما الليل أقبل خرج في صورة قط
ينادي من كل قلبه "يا غانة"
فترد عليه "غانة" كلها بأنها لن تنساه

فتناول الشاعر هذه الأسطورة الإفريقية في قصيدة طويلة صور فيها كفاح نكروما وحبه لأرضه.. هذا الحب الذي دفعه إلى الخروج من السجن في صورة قط ليطمئن على أهله وبلده. ولقد انسابت الأسطورة في نسيج القصيدة فجاءت متفقة مع السياق الشعري؛ مما أعطاها قوة ووضوحًا، فهو يصف ما كان يفعله نكروما قبل دخوله السجن فقد كان يسهر على مصالح وطنه، والشاعر بذلك يمهد نفسيًّا للأسطورة التي يريد أن يذكرها ليبرز حب نكروما الشديد لبلده:

ولغانة يمضي إعصارا
فيقبلها دارا... دارا.
ورماحًا تثمر إصرارا
وحرابا تنبت أحرارا
فإذا ما السجن به دارا
ورأى السجان وقضبانه
ينساب غناء في "غانة"

فيقال "متى هم الليل"
واسترسل في الحلم الطفل
وتغنى بالنجم الحقل
نكروما يرجع في قط
ويظل يردد في "غانة"
فترد جبال غانة
إذا ما الفجر به حانا
يمضي مسرورا فرحانا
ليمس هناك القضبانا
حتى يأتي ليل آخر.

وفي قصيدة "جمشيد وأندلس الشرق" يصور ما وصل إليه حال العرب بعد انهيار مجدهم في الأندلس فيربط بين "جمشيد بن الخليفة" آخر السلاطين العرب في زنجبار وبين خروج الخليفة عبد الله من غرناطة وفي خلال ذلك يستصرخ العرب اليوم ويهيب بهم أن يستعيدوا مجدهم القديم، والقصيدة مقسمة إلى أربعة أجزاء يربط بينها وحدة الموضوع الذي يعالجه الشاعر، وهو تصوير مأساتنا اليوم؛ ففي الجزء الأول يتحدث عن ضياع ملك جمشيد، وفي الجزء الثاني يبين حال زنجبار أيام العرب، ثم يستعيد في الجزء الثالث ذكريات المجد العربي القديم، وأخيرًا يصور الحزن الذي يملأ القلوب لذهاب جمشيد. والشاعر في نهاية القصيدة يسقط عليها من نفسه التي تنعكس عليها أحداث العصر.

جمشيد يا جزع المساء على النجوم الآفلة
يا رهبة الربان من طيش القلوع المائلة
يا آخر المترنمين على طريق القافلة
يا رقة من نسمة فجرية متفائلة
من أي باب سوف ترجع بالحياة الزائلة
بالذكريات.. بعالم جفت رؤاه الآملة
الشمس من فوق الحياة المطرقات الذاهلة
بالنور مد إلى الظلام المستبد أنامله

ثم ينتقل إلى عبد الله الذي سيظل يبكي في هذا العصر مأساة الأندلس وزنجبار..

سيظل يبكي هينا في عصرنا.. عصر الأنين

يبكي العروبة والسماحة والمآذن والسنين (١)

فالشاعر يضفي على القصيدة من موقفه الشعوري من التجربة التي يعيشها اليوم وتعيشها العروبة والمآذن أيضًا.

وفي قصيدة "لا رحمة" يصور اعتزازه وقوته وكيف أنه يعيش معتمدًا على نفسه معتزًا بكرامته، وكذا تنهال عليه الضربات فيعكس أزمته على ما حدث على قصة عبد الرحمن الداخل؛ وذلك لتشابه الظروف التي مر بها آخر ملوك بني أمية، والظروف التي يمر بها الشعر حيث المحاصرة والمطاردة؛ فالشاعر قد اختار اللحظة النفسية التي يلتقي فيها مع عبد الرحمن.

وكأني عبد الرحمن الداخل"

مرعوشًا حتى قمة رأسه

فعليه أن يختار

– والماء يسيل بجلبابه –

إما أن يرجع للأعداء

ويذوق الخبز المسموم العاقر

والملح المنطفئ اللون

والقيد الآكل في الرجلين.. وفي العينين

أو يبصر قلب أخيه نصفين

والوردة من خديه ملقاة عند الشطر الآخر (٢)

وفي قصيدة "جلد الصمت" يستوحي الشاعر قصة مقتل عثمان بن عفان المقتول ويسقط عليها أحزانه وآلامه..

الليلة في أحلامي قابلت السمك الميت

ورأيت دمائي يجريها رمح من فيروز

وشهدت قميصي منشورًا فوق المنبر

والناس بكاء (١)

---

(1) ديوان "لا مكان للقمر".

(2) ديوان كلمات غضبى.

وهنا نرى الشاعر يستوحي الأحداث التاريخية الإسلامية، وهذا ما لم نجده عند غيره من الشعراء الذين أهملوا متعمدين هذه الرموز والأحداث. وقد رمز الشاعر إلى الأعداء الذين يحاصرونه والمتسببين في أزمته النفسية برموز خاصة منها كما ذكرت آنفاً "البوم" و"الغربان" و"الخنزير" و"العين الحولاء" ففي قصيدة "الثقب" يقول:

إني قد حوصرت اليوم

باليوم الجاثم فوق الفجر

والعين الحولاء النظر

والفأر الآكل من قرص الشمس

والغربان الجوعى المنقار [٢]

فكل هذه الرموز مشحونة بها القصيدة ليقصد بها الشاعر أشخاصًا لهم دور خطير في الفكر. وفي قصيدة "الشيء الأخضر" يقصد بالشيء الأخضر: المبادئ السامية النبيلة التي يحميها الهلال الدائم رغم الظلام، والرمز هنا ليس غامضًا ولا مستغلقًا فهمه ومن اليسير الوصول إليه من خلال قراءة القصيدة كاملة. ففي هذه القصيدة يرفض أن يلقي كفه اليسرى عند الشط الأحمر أو يلقي كفه اليمنى عند الشط الأزرق؛ لأنه يخاف إن فصل ذلك أن يصبح مكسور القلب ويجف في قلبه الشيء الأخضر؛ لأنه يعرف جيدًا أن الشيء الأخضر هو نبض الحياة المستمر:

أنا أعرف أن الشيء الأخضر قلب العالم

هو نبض يكسو وجه الطحلب

وهو الأنفاس الأولى في صدر الصمت الأسمر

وهلال لما يشبع من ثدي الشمس

وهو الباقي رغم الأيام المضطربة

وهو الإنسان المشدود الكتفين

والممسك بالكفين حوافي الأرض

واللاعب بالأقمار وراء الأفق

والملقي الخوف بأعماق القتلة

(1) الديوان السابق.

(2) الديوان السابق.

والماسح فوق رؤوس الأطفال

والشادي بالأشعار [١]

وفي هذه القصيدة يجدد الشاعر رأيه في القضية التي بين "الدانوب الأزرق والدون الهادئ" فهو يرى أن يبقى القلب بعيدًا عن الشطّين لينعم بالهدوء، ويعيش القلب يدعو للمحبة بين البشر جميعًا ويغني للإنسان الطيب وللنقاء والصفاء الإنساني:

أنا أعرف هذا الشيء الأخضر في قلب الصخر البارز

أدري أن الدنيا قرب "الدانوب الأزرق"

والدنيا عند "الدون الهادئ"

– بخريطة هذي الأيام العجلى –

قد رفرفتا في آفاقه

لكن فليبق القلب بعيدًا عن هاتين الكفين

حتى لا يقتل من حيث المأمن

حتى لا يضرب بين العينين المغرورقتين

حتى لا يطلب من أحد في هذي الأيام

أن يجثو للوجه الخشبي

أو يضحك في عين الدمية

* * *

إني سأغني للنهرين الفرحانين

بالقلب الثابت والهدبين المعتزين

لكن من قلب الشيء الأخضر

من بين زبيبة هذي الشمس

رغم الأحزان الكسلى في عينيه

والرمز في هذه القصيدة وفي معظم القصائد ليس غامضًا أو مستغلقًا فهمه ولكنه واضح وسهل الوصول إليه من السياق العام للقصيدة، ويتضح ذلك أيضًا في قصيدة "الزهرة

---

(1) ديوان " كلمات غضبى "

الحمراء" والتي أوردتها سابقًا؛ فالشاعر يعرض فيها قضية فكرية معاصرة يمر بها المجتمع الإنساني.

من هذا نرى أن الشاعر قد خلق رموزًا خاصة به غير تلك التي استهلكها الشعراء، ولم يفعل ذلك حبًّا في المخالفة، ولكن طبيعة التجربة التي عاشها هي التي فرضت هذه الرموز، كما أنه أول من حرص على استحياء التراث العربي والإسلامي في الشعر. وهو بذلك يكشف عن سخاء تراثنا.. وأنه نبع لا ينضب أبدًا، يمد كل شاعر بكنوز يتفتح عليها القلب الإنساني. وأرى أن هذا التراث زاد يكفي الشعراء ويمدهم بمادتهم الشعرية أكثر مما يمدهم به في أوريست وسيسيف وعشتروت التي يمجها الذوق الفني ويتطلع إلى رموز أخرى كتلك التي استعملها الشاعر عبده بدوي.

وإني بعد هذه الجولة في شعر عبده بدوي أرجو أن أكون قد وفقت في تبيان تلك الجوانب، وإلقاء الضوء على شخصية الشاعر الذي يعتبر صوتًا مناضلاً من أجل الحق والخير.

أنشودة المجد. شعر: أم نزار الملائكة

تعيش فلسطين في وجدان كل فنان وأديب عربي، فهو يعتصر آلامه وآماله في اللون والكلمة والنغم، ليعبئ الوجدان العربي ويشحنه بالثورة وليسمع كلمة الحق للعالم ليلتقي عندها كل فنان وأديب يقدر شرف الكلمة وقدسيتها، وإني أرى أن الشعر أسبق الفنون وأسرعها إلى المشاركة فيما يجد من الأحداث في المجتمع؛ ولذا نجد أن ما كتب من شعر في القضية الفلسطينية أكثر مما كتب فيها من قصة، كما أن الشعر يمتاز بصدق الشعور وحرارة العاطفة، الشيء الذي نفتقده في القصة غالبًا، خصوصًا عند هؤلاء الكتاب الذين يكتبون وهم بعيدون عن المأساة.

ومن الشعر الصادق الشعور، الفوار العاطفة ديوان: "أنشودة المجد" للشاعرة أم نزار الملائكة التي توفيت عام ١٩٥٣، والذي قامت ابنتها البارة الشاعرة نازك الملائكة بجمعه وإخراجه إلى القارئ العربي في عام ١٩٦٨؛ في هذه الفترة التي تمر بها القضية الفلسطينية، بأهم مراحلها، وهي مرحلة الكفاح المسلح الذي أشعله أبناء فلسطين، وطالما نادت الشاعرة باتباعه منذ وقعت مأساة التقسيم في عام ١٩٤٨. وقيمة هذا الديوان أنه يسمعنا صوتاً عاصر المأساة، ويعطي صورة لما كانت عليه نفسية كل عربي آنذاك من ثورة وغضب.

والديوان يضم شعرًا في أغراض مختلفة: في فلسطين، الوحدة العربية، أحداث العراق، الشعر والشاعر، موضوعات متفرقة.

وسأقصر حديثي الآن على الشعر الوطني الذي قيل في فلسطين والوحدة العربية وأحداث العراق.

إن أول ما نلمسه في هذا الديوان بعامة والشعر الوطني بخاصة هو صدق الشعور وحرارة الانفعال؛ مما يجعل المتلقي يشارك الشاعرة في إحساساتها مشاركة وجدانية تلتقي فيها المشاعر وتنفتح فيها القلوب. فيثور لثورتها ويغضب لغضبها ويأسى لحزنها، ويفرح لفرحها.. وهذا الشعر جاء تعبيرًا صادقًا لنفس شاعرة تملك من الجيشان العاطفي ما يجعل شعرها يخرج صورة من نفسها الصافية الشفافة:

شغفت بالشعر حتى ... رويته عن نميري
جبلته من دمائي ... وذوب روحي الطهورِ
نسجت شعري مزيجًا ... من نشوة وزفيرِ
مزجته ببقايا ... شهد وطعم مريرِ

وهذا ما نجده فعلاً في الديوان، نجد الابتسامة والدمعة والثورة.. وهذه الثورة تتفجر في القصائد الفلسطينية، فكلماتها جريئة تؤمن بالنضال المسلح الذي لا تفتأ الشاعرة تردده في كل قصيدة وتدعو له.. إن الشاعرة تدعو إلى عدم مهادنة العدو حتى لا يحلو له المقام ويلذ له العيش ويحسب أن أبناء فلسطين قد انصرفوا عن قضيتهم وقنعوا بالأمر الواقع الذي فرضه الاستعمار:

أي ذنبٍ أرض البراق جنته	لتلاقي الشقاء والأوصابا
إذ رماها (بلفور) غدرًا بسهم	قد غدا في فؤادها نشابا
يطلب الطامعون تدنيس أرض	شرف الله قدرها وأطابا
أسعروها يا للأعراب حربًا	تملأ الكون ضجة واضطرابا
أسعروها نارًا يشع لظاها	يلهب لظلم حرها إلهابا
جهزوا الجيش نحو تل أبيب	وأعيدوه بلقعا وخرابا

والشاعرة في هذه الأبيات تدعو العرب إلى النضال وعدم الاستكانة، وهذا الإحساس الثوري إنما ينطلق من ثقتها بالعرب واعتقادها أنهم على مستوى المسئولية، ولكنهم أضاعوا الثقة طوال العشرين عامًا.. والشاعرة إذ تدعو العرب إلى النضال فإنما تدعوهم إليه على أساس من الإيمان الديني القوي، فهي تذكرهم بمجدهم القديم، بمعاركهم أيام الرسول عليه الصلاة والسلام.. تعيد إليهم ذكرى "خيبر" التي هزم فيها العربُ اليهودَ لأنهم صمدوا في الميدان حتى آخر قطرة من دمائهم حتى يتحقق النصر أو الموت في سبيل الله.. وهذه المعركة لا ينساها اليهود ويعيشون على أمل الانتقام لها:

لن ينالوا من أرضنا قيد شبر	أو تذوق العرب الحمام شرابا
أنسوا أم لخبثهم قد تناسوا	أمة جرعتهم الأتعابا
جهلوا خيبرًا ومرحب لما	ذاق من ذي الفقار موتًا عجابا
وحروبًا دامت سنين طوالا	سال فيها دم العدى تسكابا

وتستمر الشاعرة في حث العرب على النضال لاستعادة حقهم المغتصب وذلك باستثارة غيرتهم على المقدسات الدينية الموجودة في الأرض المقدسة.. أرض محمد وعيسى وقبلة المسلمين والنصارى.. إنها تهيب بهم أن يهبوا سراعًا لإنقاذ هذه المقدسات من يد الصهاينة شذاذ الآفاق الذين يدنسونها بفجورهم وفسقهم.. ومما يلاحظ أن الشاعرة كانت تملك من وضوح الرؤية – بالنسبة للقضية الفلسطينية – ما كان يدفعها باستمرار إلى دعوة العرب إلى عدم الاستسلام والرضا بالأمر الواقع.. وأعتقد أن أمنية الشاعرة النضالية قد تحققت الآن (١٩٦٨) بعدما انطلقت رصاصات الفدائيين الفلسطينيين أبناء عام ١٩٤٨ الذين أُحرقوا بنار

المأساة، إنهم الآن يؤمنون بالسلاح كلغة للتفاهم مع العدو، وهذا ما تؤكده الشاعرة، باستمرار في الديوان ولنستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة: "الهدنة الأولى عام ١٩٤٨".

فلسطين فجرك مستبهم	وأفقك مَحْلَوْلكٌ مظلمُ
وهذي الليوث وقد أطبقت	على زمر الغدر لا ترحمُ
فلسطين لم يبق غير السلاح	لسحق الجناة وما أبرموا
فلسطين مهما ادعى الغاشمون	ومهما أباحوك أو قسموا
فليس لنا غير لحن النصول	يرن فيخفت ما زمجروا
ثقي أننا سنقيم القلوب	سدودًا حواليك لا تقحمُ
هو الحق والحق مهما أهين	وغُلِّ مستبسل مقدمُ

وإذا كان مطلع القصيدة يخيم عليه مسحة من الحزن والتشاؤم في "الفجر المستبهم"..؛ و"أفقك محلولك مظلم" إلا أن الشاعرة لا تلبث أن تفيق من هول الصدمة فتعود إلى ثورتها وحرارتها ونقائها المستمد من الإيمان بقوة المائة مليون عربي الذين يضعون من قلوبهم سدودًا تحمي فلسطين، وإذا كانت الشاعرة في هذه القصيدة تستنهض الهمم لاستعادة الحقوق وسحق اليهود فإنها في قصيدة أخرى وهي: "الهدنة الثانية" تحذر العرب من مكر العدو وخبثه وتبصرهم بمخططاته التي يرسمها لتفرقة الصف العربي، ولعل العرب لو أصغوا إلى هذه الكلمات التي رددتها الشاعرة في عام ١٩٤٨ لما أصابهم ما أصابهم ولكتبت النهاية للصهاينة منذ وطئت أقدامهم الأرض المقدسة:

لا تغري بوعدهم والوعيد	لا تصيخي لكيدهم من جديد
لا تصيخي لأمرهم واستبيني	سبل الهدى واهزئي بالوعود

وتستمر الشاعرة في هذه القصيدة في دعوة العرب إلى بذل الدماء وغسل العار الذي لحقهم، كما أنها تهاجم مجلس الأمن الذي أصدر قرار التقسيم في قصيدة "بين الهدنتين" التي نظمتها عام ١٩٤٨.. في هذه القصيدة تعدد جرائم الاستعمار التي ارتكبها ضد البشرية:

مجلس الإفك دع الخبث وكن حرًّا نزيهًا

لا تثرها فظة رعناء تصلى ساعريها

مجلس الطغيان والغدر تريث لا تليها

فتنة مجنونة لا تتجع الذرة فيها

موطن العرب فلسطين لها حق يقيها

كن كما شئت وقد آويت جورًا غاصبيها

كن نصيرًا للصهايين وكن من خادميها

سجل التاريخ يا غرب مآسي غادريها

فامض في غيك باسم الأمن واصرع آمنيها

سوف نقتص لدنيانا لمأساة بنيها

فنحيل العالم الغادر نارًا يصطليها

ما أشبه الأمس باليوم الذي نعيشه، إن هذه الكلمات التي قالتها الشاعرة في عام ١٩٤٨، تحمل مأساة يونيو ١٩٦٧ وتكشف الاستعمار – الذي لم يتغير – في السيطرة على مجلس الأمن، ذلك المجلس الذي أنشئ ليحمي حقوق الشعب. والشاعرة ترى في الوحدة العربية الأمل الذي يحقق النصر،إنها تؤمن بها إيمانًا عميقًا، وينعكس هذا الإيمان في عدة قصائد منها "أمتي"، و"من وحي الوحدة" و"دعوة إلى الوحدة"، ولا شك أن في اتحاد العرب – وهذا ما تتطلع إليه – ضربة للعدو الذي يتحين الفرص لتفرقة العرب واصطيادهم فرادى لتحقيق أهدافه؛ ولهذا نرى الشاعرة تؤكد باستمرار في القصائد الخاصة بالوحدة العربية ضرورة لمِّ شمل العرب والوقوف جميعًا صفًا واحدًا لمواجهة مبنية على أساس من الفهم لواقع العدو وقدراته؛ ولذا فهي تستصرخ راية العروبة أن تجمع العرب وتنقذهم من الفرقة:

إيه يا راية العروبة ضمي	شملنا تنقذيه من تبديد
فقد ريعت النفوس بتفريق	دهانًا وكاد بالعرب يلودي

والشاعرة في هذين البيتين تأسى للفرقة التي أودت بالعرب وبحقوقهم وبمجدهم وجعلتهم ينسون أن بلاد العرب واحدة لا يفصلها حدود، وما الحدود الآن إلا أوهام اخترعها الاستعمار ليمزق الشمل العربي وينثر أشلاءه على رمال الصحراء.

بني أمتي طال السكوت ألا انهضوا

فهذي الليالي السود غاب دليلها

بني أمتي لا حد بين بلادكم

فيفصل عن أرض الفراتين نيلها

وعن بردي الخابور يقص ودجلة

وتفصل عن أرز الأباة نخيلها

تعددت الرايات في أرض يعرب

وتوحيدها فيه تضم فلولها

تباعـــــــدتم عـــــــن وحـــــــدة عربيـــــــة

أبـــــــى المجـــــــد إلا أن يوحـــــــد جيلهـــــــا

ورغم أن الشاعرة قد عاشت التجربة في أوانها وقت السيطرة وجبروته فإنها لم تستسلم ولـم تيأس ولم يخفت صوتها، وانطلقت كلماتها تنفجر بالثورة على الاستعمار وبالأمل في النـصر، رفعت صوتها تدعو إلى النضال وإلى الوحدة حتى يمكن محاربة العدو في جميع المجـالات: سياسيًّا، واقتصاديًّا، وحربيًّا، وتحقق النصر المأمول، والشاعرة في قـصائد مختلفـة ترفـع صوتها مطالبة العرب بالثورة ضد الاستعمار للحفاظ على مجدهم ولنصرة دينهم والجهاد مـن أجل رفع رايته:

ألا غضبة للمجد قد حـان حينهـا　　　فتطرق آذان الطغـاة طبولهـا

ألا نصرة الدين ترفـع صـوتها　　　كما قوم الإيمان قدما رسـولها؟

وبعد ذلك تبين الشاعرة أسس الوحدة العربية: لغة واحدة، ودينا واحدا، وتاريخا واحدا، ويلتقي مع صوت الشاعرة صوت أمير الشعراء أحمد شوقي إذ يقول:

فصحت ونحن مختلفـون دارا　　　ولكن كلنـا فـي الهـم شـرق

ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلاد　　　بيـان غيـرُ مختلـفٍ ونطـق

وفي الواقع أن الشاعرة في هذا الديوان تحدد مسئولية الأديب تجاه وطنه، وتبرز دور الأديب القيادي في مجتمعه، وتقرر أيضًا مدى أهمية التزام الأديب بقضايا مجتمعـه والنـضال مـن أجلها.. وإننا في هذه الفترة في أشد الحاجة إلى الأديب الواعي المؤمن، ليقف بالكلمة الإيجابية بجانب المناضلين بالسلاح. وهذا ما يتحقق الآن بالنسبة لفلسطين، فلقد انطلقت الأقلام شـعرًا ونثرًا تنادي بالحق المغتصب، وفي الوقت نفسه انطلقت مدافع الفدائيين لتحول الكلمـات إلـى رصاص، وهذا ما يجعلنا نؤمن بأن النصر قريب إن شاء الله، ونقول للعروبـة كمـا قالـت الشاعرة:

هيئـي البـشر واسـتعدي ليـوم　　　هو يوم البشرى بعهـد سـعيد

أبشري وانظمي الشعور عقـودًا　　　إن عقد الشعور خيـر العقـود

وانثري أجمل الزهور علـى تـر　　　ب فلـسطين سـاحة التوحيـد

وافخري إذ بنوك فيهـا تواصـوا　　　أن يغنـوا بعـزك المعهـود

أقـسموا لا تـرى فلـسطين ذلا　　　أو تكون الأشلاء مـلء البيـد

بذلوا في الجهـاد أعظـم جهـد　　　إذا حلا في الجهاد بذل الجهـود

وكما ناضلت الشاعرة بقلمها من أجل فلسطين نضالاً جادًا ناضلت أيضًا من أجل الحرية في بلدها العراق، فنددت بالظلم والطغيان وأشادت بالثورات التي انبثقت على أرض العراق ضد الاستبداد في قصيدة "بغداد في الأسر" و"يوم الجسر" و"ذكرى آيار"، في هذه القصائد خلدت دور الثوار الذين ضحوا بأنفسهم من أجل حرية وطنهم غير مبالين بالسجن أو الإرهاب، لقد عبرت الشاعرة عن أملها في الحرية وأدانت الحكام الظالمين في جرأة وثبات وصورت أعمالهم البشعة الإرهابية من سجن وتعذيب ليخضعوا الأحرار، ويبدو ذلك في قصيدة "بغداد في الأسر" التي نظمتها الشاعرة بعد فشل ثورة آيار عام ١٩٤١:

سجلي يا دهور عهد العذاب	واكتبي السفر بالدم السكابِ
سجلي يا حياة عهد الطواغيـ	ـت وما تبصرين من إرهابِ
سجليها مهازلاً تصهر الحس	فتصلي النفوس بالأوصابِ
وأزيحي الستار عن أفق بغدا	د تريها في محنة واضطرابِ
أرهبوها بالكيد في حلك الليـ	ـل وبثوا السموم بين الروابي
أحكموا حولها القيود فباتت	من إسار الطغاة في جلبابِ

وفي قصيدة "ذكرى آيار" التي قالتها الشاعرة في ثورة رشيد علي الكيلاني التي قام بها عام ١٩٤٢ بعدما حكم عليه بالإعدام، تصور أيضًا جرائم الحكام الظالمين وتندد بالفساد وتدعو إلى الثورة للقضاء على المجرمين أعداء الشعب وهي في ذلك مؤمنة ومتفائلة بانتصار الحق وبانفراج الأزمة بعد ضيقها وبأن بعد العسر يسرًا له وفي سبل الرجاء ومض افتتاح:

صبرًا أباة الضيم لا تقنطوا	وناضلوا الطغيان حتى يزاح
صبرًا بني العرب على نكبة	حمراء أزرت بالأماني الملاح
وواصلوا الجد لطرد العدى	وكافحوا بالعزمات الصفاح

مما سبق نرى أن الشاعرة قد عبرت عن القضايا التي تناولتها تعبيرًا صادقًا ينبعث من إيمانها القوى بها؛ فجاء شعورها صادقًا حارًّا يلتقي معه القارئ العربي؛ لأنه يعبر عما في نفسه، والشاعرة من أصحاب المدرسة التقليدية، ولكننا نلمس قدرتها الفنية في اختيار الألفاظ الشاعرية وفي طول نفسها في القصيدة دون ملل أو ضعف أو تكرار لألفاظ تفرضها ضرورة القافية، كما أنها تجذب الروح بسحر المعاني. وإننا نشكر الشاعرة نازك الملائكة التي قدمت لنا هذا الديوان.

بدر شاكر السيَّاب

عاش قلبًا ينبض بالحياة، يتحدى آلام المرض، فتغنى الشعر حتى الرمق الأخير لينفس عن عذابه؛ فكسى كلماته بغلالة من إحساساته وسقاها بعصارة تجاربه ليقدمها للناس جميعًا خيرًا وحقًّا وجمالاً.

لقد ذابت آلامه في تراب أرضه المقدسة التي نشأ عليها.. وكم تغني بها وحدث الناس عنها، ودعاهم إلى أن يمنحوها الحب، وأن يحرسوها ويحكموا كيانها.

والسياب في رحلة عمره التي اقتطعت من عمر الزمن أربعين عامًا سليمًا معافًا ثم مريضًا طريح الفراش ترك عدة دواوين:

"أزهار ذابلة"، "أساطير"، "ملحمة حفار القبور"، "الأسلحة والأطفال"، "أنشودة المطر"، "منزل الأقنان"، "المعبد الغريق"، وهذه الدواوين تمثل مراحل تطوره الفنية والفكرية التي مر بها، كما أنها مرآة تعكس مشاعره وأحاسيسه بكل صدق وعمق.

فالسياب بدأ حياته الفنية شاعرًا رومانتيكيًّا في "أزهار ذابلة" ثم رومانتيكيًّا رمزيًّا في مجموعة "أساطير" وملحمة "حفار القبور"، ورمزيًّا واقعيًّا راقيًا في "الأسلحة والأطفال" وانتهى أخيرًا إلى الشعر الواقعي التصويري.

والشاعر عاش واقع بلاده المرير الذي تقلبت فيه سنين طويلة في أحضان ظلم الحكام والاستعمار، وكان لمأساة فلسطين التي انتكب بها إخواننا العرب أثر عميق في نفسه.. ولم يكن السياب بعيدًا عن هذه الأحداث التي تولد في وطنه بين لحظة وأخرى، بل شارك فيها وتعاطف معها وذابت مشاعره في مشاعر الجماهير العربية التي أثخنتها جراح الظلم والاستعباد.. وراحت تبحث عن وسيلة للخلاص من هذا العبء الثقيل.

ولقد أخرج السياب ديوان "منزل الأقنان" وهو يمثل مرحلة من مراحل تطوره الفنية الأخيرة، ويمتاز عن سابقيه من الدواوين بأن قصائده الثماني والعشرين التي يتضمنها نظمت جميعها في الفترة التي كان يعاني فيها آلام المرض وتزحف عليه النهاية، فنلمس في هذه القصائد الإحساس المأساوي.. فهي أغانٍ حزينة يغنيها إنسان يشعر بالحياة تتسرب منه رغمًا عنه، فهو يحبها، ويريد أن يعيش من أجل زوجته وولده غيلان، ويود أن يوقف تسربها، ولكنه لا يستطيع أن يرد قضاء الله وقدره، فلا يملك إلا الصبر كما صبر أيوب على بلواه حتى شفاه الله:

لله الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لله الحمد، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم

ألم تعطني أنت هذا الظلام

وأعطيتني أنت هذا السحر؟

فهل تشكر الأرض قطر المطر

وتغضب إن لم يجدها الغمام؟

شهور طوال وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المُدَى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

ولكن أيوب إن صاح صاح

لك الحمد، إن الرزايا ندى

في الواقع إننا لا نحس في هذه القصائد بتشاؤم، بل نحس فيها بنبضاته حية وبدمائه تتدفق في كل سطر حارة تحمل حبه لوطنه الكبير ولبيته في جيكور؛ حيث زوجته وولده غيلان، تحمل كل ذكريات الماضي، كما أنه يعطي تجاربه الحياتية لبني بلده، ففي قصيدة "وصية من مختصر" يوصيهم بحب بلدهم والتضحية من أجلها وألا يكفروا بنعمها، وعليهم أن يتمتعوا بشمسها المشرقة وسمائها الصافية، وخضرتها الناضرة، ومائها الرقراق، ويقول لهم أن ما يخبرهم به ما هو إلا رؤية إنسان بعث، والميتون لا يكذبون:

يا أخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمال

بين المقابر والسهول وبين عالية لجبال

ابنا شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبة

لا تكفروا نعم العراق

خير البلاد سكنتموها بين خضراء وماء

الشمس، نور الله، تغمرها بصيف وشتاء.

لا تبتغوا عنها سواها

هي جنة فحذار من أفعى تدب على ثراها

أنا ميت، لا يكذب الموتى، واكفر بالمعاني

وليس الحديث عن مظاهر جمال العراق وخيرها الكثير وبيان فضلها، ونصيحة أخوته العراقيين بالتفاني في حبها مقصورًا على هاتين القصيدتين، ولكن تتكرر هذه المعاني في معظم قصائد الديوان، والسبب في شيوع هذه الروح هو أن السياب قضى فترة بعيدة عن وطنه في لندن للاستشفاء رفيق الوحدة، رهين الفراش، يحس ببطء الزمن وثقله عن كتفيه.

وكما تغنى بوطنه وعبر عن شوقه وحنينه إليه.. يتحدث أيضًا عن بيته في جيكور حيث زوجته وولده ينتظران عودته ويقضيان الليل يتسمعان وقع أقدامه وينصتان إلى دقات أصابعه على الباب.. والمصباح ساهر معها ينفث آلامه وينتظر عودة صاحب البيت في شوق ولهفة.

وينقضي الليل.. ولا يعود، ويذوب الأمل.. ويستسلم الصغير للنوم ولكن يبقى هو في لندن مسهدًا يأكله الشوق إلى العراق وتقبيل صغيره والتمتع بمداعباته:

وزوجتي لا تطفئ السراج: "قد يعود

في ظلمة الليل من السفر"

وتشعل النيران في موقدنا: "برود

هو المساء، وهو يهوى الدفء والسمر"

وتنطفئ مدفأتي، فأضرم اللهيب

وأذكر العراق: ليت القمر الحبيب

من أفق العراق يرتمي علي.. آه يا قمر

أما لثمت وجه غيلان؟ أنا الغريب

يكفيه؛ لو لثمت غيلان، أن أنتثر

منك ضياء عبر شباك الأب الكئيب

عابث شعري، صاح: آه جاء

أبي، وعاد من مدينة الحجر

وشد بالرداء

ما أطول الليل وأقسى مدية السهر

ومدية النوم بلا قمر!

من هذا نرى أن السمة الغالبة على الديوان هي الشوق والحنين إلى وطنه "العراق" وبيته الصغير في جيكور، ونلاحظ أن حبه لوطنه ملك عليه أحاسيسه الأمر الذي جعله يكثر

الحديث عنه ويقدمه عن زوجته وولده؛ لأنه يعرف أن بيته ما هو إلا جزء من الوطن الكبير الذي يعترف بفضله، ويقرر أن أمنيته الوحيدة هي أن يعود إلى وطنه ليقبل ثراه ويعانق كل نبتة صغيرة فيه، ويعيش في كوخ صغير وسط الحقول.

وعلى الرغم من أن السياب كان يعرف بنهايته الحتمية فإننا نجده شجاعًا ثابتًا.. لم تضعف روحه أمام الموت، بل كان يستمد من مأساته طاقات شاعرية كانت تتدفق منه تصارع الموت وتذيب آلامه وأحزانه.

لقد أحب السياب الحياة ولكنه زهدها وعافت نفسه كل شيء، لأنه يحس أن حباله تتقطع الواحد تلو الآخر.. لقد تبلورت كل أمانيه في العودة إلى وطنه ورؤية ابنه وزوجته.. إنه لا يريد من الحياة إلا كوخًا صغيرًا وسط الحقول يقضي فيه أيامه الأخيرة في هدوء.. إنه يريد أن يذهب إلى الموت بلا ضجة وبلا تألم؛ ففي "نداء الموت" يقول:

جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفن الخطى عن طريقي
ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ، فيما يزول
خريف، شتاء، أصيل، أقول
وباق هو الليل بعد انطفاء البروق
وباق هو الموت، أبقى وأخلد من كل ما في الحياة
فيا قبرها افتح ذراعيك
إني لآت بلا ضجة؛ دون آه!

وفي قصيدة "الشاهدة" يطلب من بني وطنه أن يذكروه دائمًا عندما يمرون بقبره وألا يقلقوه ويدعوه في وحدته تؤنسه الديدان، وأن يقرءوا شعره دائمًا وأن يتذكروا "جيكور" مسقط رأسه الغانية تحت غصون النور تحلم بالسحاب.

إن يكن السياب قد رحل عنا فإنه ترك شعره الذي يحمل روحه ويذكرنا به فتحس بأنفاسه حارة، فالذكرى للإنسان عمر ثان:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

والسياب بما تركه من إنتاج شعري قد رفع ذكره وخلد اسمه ولاسيما في ديوان "منزل الأقنان" الذي وضع فيه الكلمات الأخيرة في قصة حياته ممزوجة بأحاسيسه ومشاعره الصادقة النابعة من قلبه.. وما خرج من القلب يصل إلى القلب، لقد أعطى الناس جميعًا الحب والأمل ولم يطلب منهم إلا أن يتركوه في هدوء وسلام.. وأن يقرءوا شعره.. فهلا قرأنا شعره تنفيذًا لوصيته.

الشناوي شاعر الحياة

قضى كامل الشناوي حياته يتساءل من أين أتى وإلى أين يمضي؟ ظل يـسائل نفـسه مرة ويسأل الدهر مرة أخرى.. أين يختفي الومض والنبض والصوت، وأيــن يـذهب الــذين مضوا قبله؟ وكم حرقه الشوق للقياهم.. ظل قلقًا حتى ذهب إليهم والتقى بهم.. ولعله الآن قــد عرف الإجابة عن أسئلته.. وهدأت روحه.

مات الشاعر الإنسان الذي أحب الكلمة فأعطاها إحساساته وخلجات نفـسه.. فجــاءت جميلة تنبض بانفعالاته الصادقة، مشحونة بالعذاب والألم، وأحب كذلك الناس فمنحهم روحــه فأعطاهم منها الشفافية والصفاء واحتبس لنفسه أنّاته الحزينة، وذكريات شبيت صباه، وحطمت خطواته؛ كان كهارب ليس يدري من أين أتى وإلى أين يمضي، فهو يعيش في شك وضبابية:

شـــك، ضـــباب، حطـــام　　　بعـــضي يمـــزق بعـــضي

لقد حفر العذاب في نفسه خطوطًا غائرة رسبت في أعماقها تجارب عاشها فـصهرته، فخرج منها إنسانًا جديدًا.

انتهج منهجًا جديدًا في حياته، ووجد في شعر أبي العلاء أنيسًا وفي فلسفته مبدأ يتفــق ونفسيته فتأثر به وطبقه في حياته، فلم يتزوج لأن الزواج جناية كما يقول أبو العــلاء، فــلا داعي للوقوع في هذا الخطأ، ولا داعي أن يورث ذريته خطأ لم يرتكبه:

هـــذا جنـــاه أبـــي علـــي　　　ومـــا جنيـــت علـــى أحـــد

والزواج في رأي أبي العلاء عدوى حمد الله على أنه لم يصب بهذه العدوى: -

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالـــد　　　بعدوى فمـــا أعـــدتني الثؤبـــاء

وشكر كامل الشناوي ربه أيضًا على أنه أنقذ من هذا الوباء.

ولم يكن إضرابه عن الزواج عن غير اقتناع؛ بل كان عن إيمان فلسفي واقتناع عقلي، فهو يعتقد أن الإنسان مشكلة لم تهتد بعد إلى حل.. فهل يتزوج ليتسبب في مـــشكلة جديـــدة؟ ويؤمن أيضًا بأن الزواج رسالة إنسانية سامية فيجب على أي إنسان يتصدى لهذه المهمـــة أن يكون أهلاً لها وإلا اعتبر زواجه جريمة.

إننا لا نستطيع أن نقول بأن كامل الشناوي كان متشائمًا.. لأنه حول تشاؤمه إلى حب الآخرين.. حب الناس جميعًا.. ذلك الحب الذي تطور إلى حب كبير.. حب وطنه.. وهو نفسه يقول مدافعًا عن تهمة التشاؤم في مقدمة ديوانه "لا تكذبي": "ولا تتهمني بالتشاؤم لأن بعــض ألفاظي حزينة، وبعض تعبيراتي مقطبة الجبين؛ فما دام الموت يتعقب حياتنـــا ومـــا دمنـــا لا

نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم.. هم الذين يضحكون للحياة.. ويسمون ذلك تفاؤلاً.. لست متشائمًا.. ولست مجنونًا، ولكني أحاول أن أكون صادقًا مع ما أشعر به وما أفكر فيه".

كان يعاني إذن من آلام نفسية كثيرًا ما عذبته.. ولكن رغم عذابه.. وألمه كان يفيض عطفًا ويغدق الخير على الجميع بلا استثناء، ويمد يده للبراعم المتفتحة ويحنو عليها ويمهد لها طريق المستقبل كأنما آل على نفسه أن يمسح دموع الحزن من كل العيون التي تحيط به لأنه يريد أن يراها تبتسم، يزهو فيها المستقبل، إنه كالشمعة التي تعطي نورها في صمت محترق ويكفيها أن ترى الناس سعداء بنورها.. فهو يحترق بنار مأساته.. تلك النار التي أتت على كل شيء.. حتى على يأسه وأمانيه:

أين يأسي؟ لقد مضى	ومضت مثله المنى
فحياتي كما ترى	لا ظلام ولا سنا
كل ما كان لم يكن	وأنا لم أعد أنا

وهو ذو موهبة فنية نادرة، وكان إنتاجه جيدًا رغم قلته، فكلماته شاعرية ينتقيها بذوق شاعر.. وعباراته جميلة يشذبها بروح فنان، فالديون الوحيد الذي أخرجه "لا تكذبي" يضم مجموعة قصائد بثها لواعجه وهمس فيها مأساته.

وفي هذا الشعر يفعل مثل الرومانسيين يأخذك معه في بحر من الآلام والعذاب حتى أنك تأسى لجراحه وتشفق عليه، وتدعو له، إنه يحاول أن يشعرك بمأساته لتتعاطف معه.. ورغم سمة الحزن الغالبة على قصائده العاطفية ورغم رائحة اليأس والعذاب والألم التي تنبعث من الديوان فإنك تلمح وميض الحياة يسري من هذه الضبابية.. والشعراء الذين تغنوا بالألم والعذاب تنفيسًا عن مآسيهم الاجتماعية والعاطفية والصحية كثيرون؛ منهم: أبو القاسم الشابي وبدر شاكر السياب وجون كتيس؛ فكل تغنى بأسلوب مأساوي حزين.

ورغم الشكوى الواضحة في شعره نراه يجمع بقايا حطامه ليتمثل شيئًا لكرامته وكبريائه وأعتقد أنه صادق مع نفسه عندما يتحدث عن كبريائه:

علام يا قلب تشكو	نقض الحبيب عهوده
دع الهوان وحطم	أغلاله وقيوده

ويقول محدثًا حبيبته:

لكنني لي يا روح	كما عرفت عنيدة
إباؤها لا يبالي العذاب	أن يستزيده
كوني الجحيم سعيرًا	فلن أكون وقوده

ولم يكن يبالي بشيء بعد أن فقد كل شيء.. قلبه وأمانيه.. وشبابه حتى دموعه نضبت.. لم يهتم إلا بعلاقاته مع الناس حيث تذوب وحدته معهم وتمتزج عواطفه الرقيقة بعواطفهم، فسواء عليه عاش سعيدًا أم بائسًا فالزهور التي ماتت من الظمأ كالزهور التي ذوت في الماء.. ولكل شيء نهايته المحتومة فالطيور التي تغرد فرحًا مصيرها يومًا إلى البكاء.. إن مشكلته الحقيقية في أنه كان يحس بمأساته الذاتية وبمأساته العامة كإنسان لم يصل إلى حل لمشكلة وجوده.. ففي شعره كثيرًا ما يتساءل عن سبب وجوده.. لماذا خلقه الله؟.. هل هو وسيلة أم غاية؟.. وكم تمنى لو أنه لم يعش هذه الحياة.. ولماذا يعيشها وقد قضى أيامه فيها يبيع الحب بالعذاب.

وشخصية كامل الشناوي في شعره الوطني مغايرة لشخصيته في شعره العاطفي، فلسنا نرى تهالكًا ويأسًا ولكن نرى قوة وثورة وجبالاً تدور ورياحًا تثور وبحارًا تهيج.. إنه في هذا الشعر يعلو على مشاعره الذاتية ويذيب حبه وألمه في حبه الكبير لوطنه الذي لن ينسى له مواقفه الوطنية التي دافع فيها عنه قبل الثورة.. فقد تجلت وطنيته وثوريته في مواقف عدة، منها: أزمة الرأي العام مع القصر عام ١٩٥٠ بسبب تشريعات الصحافة، وكذلك في معاهدة صدقي – بيفن عام ١٩٤٩.. ولقد اشتعل قلمه ثورة وأخذ يندد بها وبين بطلانها حتى انتصر ولم تتم المعاهدة.. وكم تغنى بوطنه وبما قاساه من ظلم:

كنت في صمتك مرغمْ ... كنت في حبك مكره
فتكلم وتألم ... وتعلم كيف تكره

وقال أيضًا:

أنت إن لم تتحرر
فسأمضي أتحرر ... من قيود الجسد
لا أبالي الهول، بل أعشقه
لا أباليه وإن مت صريعًا
بيدي يا بلدي

لقد انطفأت الشمعة بعد ما تركت نورها في قلوبنا.. لقد انتهى كامل الشناوي من رحلته الحياتية وراح ليبدأ رحلة جديدة في عالم آخر حيث الأمان والاستقرار.

محمود عماد...

عاش في صمت ومات في صمت

نبضات قلب، وخلجات نفس، وأحاسيس إنسان عرك الحياة وخبرها، وتجارب سنين عاشها فأخرجها للناس مثلاً ومبادئ صاغها في كلمات شاعرية؛ فجاءت صورة صادقة من نفسه.. وومضة من روحه تظل تشع في قلوبنا الحكمة والأمل.. هذا ما يشعر به قارئ شعر الأستاذ محمود عماد – رحمه الله – الذي قطع رحلة حياته مثقلاً بالأمانة التي حملها الإنسان امتثالاً لأمر الله.

ساموه حمل أمانة	ونسوه من أجر الأمين
حمل الأمانة بينما	قد هابها الجبل المكين

والأمانة عنده مسئوليات جسام تتعلق بحياته الأسرية التي أصبح ربانها وهو في السادسة عشرة من عمره، بعد وفاة والده.. وحياته الوظيفية التي قضى فيها اثنين وأربعين عامًا بوزارة الأوقاف.. تقلب خلالها في مناصب مختلفة كان آخرها مدير مراجعة إيرادات ومصروفات الوزارة، وظل بها حتى تقاعد عن العمل الوظيفي في عام ١٩٥١.. ولقد خرج منه خالي الوفاض.. ولكن نفسه عامرة بالتقوى والقناعة، وهما زاده الذي تزود به في رحلته هذه.

لكن بأي الزاد قد	عاد الظعين إلى البنين
نادى: بخير الزاد، بالتـ	ـقوى. بكنز القانعين

والقارئ لشعره يلمس مدى تأثير هذه الفترة في نفسه نظرًا لما لاقاه فيها من صراعات ومعاناة، من عنت وظلم وإجحاف لحقه كموظف وكأديب، وهذا ما كان يقلقه ويؤلمه دائمًا لأن الفنان أشد ما يؤذيه ويجرح إحساسه أن لا تقدر موهبته.. وكثيرًا ما يؤثر عدم التقدير في نفسية الأديب فيعتزل الحياة ويكف عن الإنتاج احتجاجًا على هذا الإجحاف، وبعضهم يواصل إنتاجه ليشحنه بثورته ويكشف عن الأدواء الاجتماعية التي تهدد أفراد المجتمع.

وشاعرنا انعكست في شعره أزمته الوظيفية فقد كان يعتبر فترة الوظيفة سجنًا لروحه كم تطلع إلى الخلاص منه؛ وعندما تخلص حمد الله أن حطم قيوده وتحرر من سجن الاثنين والأربعين عامًا التي قضاها في الوظيفة.. لأنه أشر من السجن الأسود الجدران.. فهذا إصلاح للمجرمين وذاك مفسد للصالحين.. أصحاب المبادئ والمثل الأخلاقية..

السجن إصلاح وهذا	مفسد للصالحين

ولا يقتصر حديثه عن الخير والشر والمداهنة والنفاق وأثرهما في المجتمع في قصيدة واحدة، بل يتردد ذلك في معظم شعره فيتحدث عن المال وسيطرته على النفوس الضعيفة التي تستمد منه القوة وتظن أنها تستطيع أن تغير في مصائر الأفراد والشعوب، وتستطيع كذلك أن تحقق ما تصبوا إليه ما دامت تملك السلاح القوي.. ولقد عبر عن مأساته هذه.. مأساة الإنسان الأبي النفس ضحية النفاق الذي لم يستطع أن يخضعه.. فلنستمع إلى طاووسه وهو يحدث الشمس التي يريد الوصول إليها ويسمو إلى مكانتها.

وأنا الكَيِّسُ حلو الشكل	العف السقيا والأكل
في الشوق أسير وفي الوحل	وأراود طيفك في يأس
أفيسمو القبح ويرتفع؟	ويحط الحسن ويتضع؟
شرع في الغابة متبع	في شرع الغابة ما يؤسي

ولقد كان يرى أن من واجبه كشاعر أن يكشف القناع عن الزيف والآفات التي تنخر في جسد المجتمع.. يجب أن يكشف عن هؤلاء الذين يغيرون الحقائق ويلونونها لصالحهم وسيدهم في ذلك الجشع، ودافعهم الطمع والرغبة في جمع المال.. لقد أفسد هؤلاء الدنيا ودنسوا الجمال.. فيقول في قصيدة "المقصف المنهار".

كم من معارك أذكاها الجمال هنا	والمال، حامية مرهوبة الأثر
ما فيه من شاعر بالحسن مفتتن	بل داعر باقتدار المال مفتخر
كف ملوثة تقذى العيون بها	تطوى وتنشر طاقات من الزهر

لقد اختلطت في هذه الدنيا القيم وأصبح يعبث فيها الشر وليس له زاجر ومن يهتم بزجره اللهم إلا الشاعر الذي يعرف معنى الحياة ويدرك سرها.

فمن سوى الشاعر قد همه	من أمرها الباطن والظاهر

وإن كان شاعرنا ينظم الشعر التقليدي إلا أنه التقليدي الشكل ولكنه عصري المضمون؛ إذ قال الشعر في موضوعات العصر: في الذرة والقمر والصاروخ، والقضايا الاجتماعية كتحرير المرأة.. كما أنه يميل إلى التجسيم فهو في ذلك كابن الرومي الذي يشبه المعنويات بالمحسوسات،.. كل ذلك في أسلوب سهل بعيد كل البعد عن التعقيد اللفظي، والمناسبات الوطنية تحظى من الشاعر باهتمام كبير؛ فهو يشارك فيها بعواطفه، ولنستمع إليه وهو يحدث الاستعمار ساخرًا منه:

ضيوف النيل هل ملوا المقاما	وما مكثوا سوى سبعين عاما
لماذا لم يطلبوا المكث حتى	يروها أصبحت ألفا عاما

ولقد أصدر الشاعر الجزء الأول من ديوانه المسمى بديوان عماد سنة ١٩٤٩ وفـاز بالجائزة الأولى من المجمع اللغوي عام ١٩٤٧ ولقد تضمن ما ارتضاه من قصائده التي نظمها منذ أن نظم الشعر وهو في السابعة عشرة حتى ظهر الديوان.

ولقد كتب العقاد – رحمه الله – مقدمة هذا الديوان التي يقول فيها:

ولقد عرفنا شاعرنا المجيد منذ فجر الشباب؛ فعرفناه كما قال عن نفسه وكما قال عـن شعره.. يقول ما يناجي به وجدانه ويوافق سجيته وسجية أمثاله ونظرائه، لا يعنيه بعد ذلك من يشبع بينهم هذا النجا.. ومن يقف منهم دون الآذان أو دون الرؤوس.. وأصبح ما يفهم من هذه الصفة التي اتسم بها شعر هذا الديوان أنه مناجاة خاطر لخاطر.. ومطارحة قريحة لقريحـة، وليس هو بإعلان ولا بدعوة ملحة تلاحق الناس لتطرق علـيهم أبـوابهم، وتـستثير مكـامن الشهوات والأهواء.

ولقد صدر له قبل هذا الجزء قصة "كليوباترا ومارك أنطونيوس" عام ١٩١٦ وصـدر الجزء الأول من قصة "الشاعرة والمصور" عام ١٩١٧ وفي عام ١٩٦١ صدر الجزء الثـاني من "ديوان عماد.. ولقد كان – رحمه الله – يزمع إصدار الجزء الثالث بعنوان "عود على بدء" وهو يضم ما لم ينشر من قصائده الأخيرة في المجلات وما نشر منه فـي المجـلات، ومـا يضمنه في الجزأين الأول والثاني من قصائد الشباب، كما يتضمن قصة كليوبـاترا ومـارك أنطونيوس، ولقد نال وسام العلوم والفنون، وميدالية عيد العلم الثامن في ديسمبر سـنة ١٩٦٢ ورغم أنه كثيرًا ما كان يحذر من الدنيا التي ساد فيها الشر والفساد إلا أننا نراه يـدعونا إلـى مصاحبة الدنيا على علاتها محذرًا عن الشعر لأنه قد يشطح به الخيال ويهول الأمر.

أصحبا الدنيا علـى علاتهـا	واحذر الشعر فإن الشعر كمـا
يكشف المخبوء مـن آفاقهـا	فتخالا أن فيهـا الخيـر نـادر
هي بالـضدين تعتـز معـا	يمرح الطاووس فيها والعقـاب
وبها ذو الناب يلقـى مرتعـا	والذي قد جاءها من غير نـاب

فكأنه قد شعر باليأس من إصلاح الدنيا وأحس أنه لن يقدر على تغيير مسيرها ففضل أن يعيشها كما هي.

وأخيرًا إننا لا نريد أن نقول له كما قال هو في رثاء صديقه علي شوقي.

حـضرت للـدنيا وكافحتهـا	وما أحسست من بهـا حاضـر
وعنـدما فارقتهـا مـا درت	أن الـذي فارقهـا الـشاعر

قصص قصيرة

رائحة الدم

تأليف: مصطفى محمود

"إنها ليست بالشيء المهم.. فهي جزء من الدشت البشري الذي يملأ الأرض لا يقدم ولا يؤخر.. دفن فيها كل شيء وتعيش وسط الحطام كشاهد مقبرة على مكان المأساة".

تعتبر هذه الكلمات التي قالها مصطفى محمود عن (أم سيد) في إحدى قصصه، وهي (أم سيد) نقطة الانطلاق لفكرته الأساسية عن مأساة الإنسان وهي الخط الرئيسي الذي يمتد في جميع إنتاجه القصصي.

فالكاتب يحس بمشكلة الإنسان في (أم سيد) ويحس بها أيضًا في بطل قصة (انفعال) – أكل عيش– الذي يرى كل شيء حوله قديمًا مغلفًا بالتراب أنه يرى الحياة كالألبوم.. صورة تذكارات وعندما يخلو إلى نفسه يتساءل لماذا يرى الأشياء هكذا، أهو الملل؟ أهي الوحدة؟ أهو الروتين الذي يقتل الأفراح ويقتل الأحزان ويحولها إلى وظائف كأحزان القسس؟ ماذا يرى مصطفى محمود فيما يقدمه من إنتاج قصصي؟

إنه يريد إنسانًا جديدًا.. ولكن أي إنسان يريده؟

صورة هذا الإنسان تتحدد بإيجابيته.. ببحثه الدائم عن ذاته.. برفضه النمطية في حياته والدوران في حلقة مفرغة.

ومن أجل ذلك يكشف عن جوانب السلبية في الإنسان، وهذه الجوانب هي: التفاهة، الملل، الوحدة، الآلية، الروتين.

وإذا نظرنا في إنتاجه القصصي نجد أنه يتناول هذه السلبيات مكتفيًا بعرضها فقط ووضعها تحت الميكرسكوب دون أن يقدم علاجًا لها حتى لا يفرض نفسه، ولكنه لا يلتزم بهذا في بعض القصص مثل: (حلاوة السكر) و(حنان) وقصة (عنبر ٧) و(شيء مجهول) و(درس في الخشونة) من مجموعة "رائحة الدم".

ففي القصص الثلاث الأولى يدعو إلى الحب باعتباره وسيلة من الوسائل التي تضفي على الحياة معنى وقيمة.. وفي القصتين الأخريين (سيأتي الحديث عنهما) يضع أمام أبطاله العمل منقذًا لهم من الخمود القاتل.

وهنا في رائحة الدم يوضح لأبطاله الطريق بعد ما تركهم حيارى في مجموعتيه السابقتين (أكل عيش) و(عنبر ٧) تركهم لا يعرفون ماذا يفعلون، كل ما هناك أنهم أحسوا بأنفسهم وبدءوا يفكرون في الخلاص؛ فكان الرفض والتمرد على واقعهم الذي يعيشونه.

ففي قصة (روبابيكيا) وقصة (انفصال) يبحث بطلاهما عن أي شيء يوقظ مشاعرهما ويحرك أحاسيسهما حتى ولو كان ذلك في الضحك كما يقول بطل قصة (روبابيكيا): "فضحكت في هستيريا، فقد كانت الحياة في هستيريا حولي وأفرجت الضحكة عن سخطي، وبدأت أتعود على الضجيج، وخيل إلى أنني لو تحولت إلى السكون لاستشعرت الوحدة".

فشخصيات مصطفى محمود تبحث عن معنى للحياة لأنها تريد أن تعيشها من الداخل، إنها تبحث عن لحظة انفصال.. لحظة حب.. لحظة نشوة.. لحظة دهشة.. انطلاقة خيال، إنها لا ترضى بالأكل والشرب وسيلة للحياة ولذلك فهي تبحث عن العمل لأنها تستشعر فيه نبض الحياة، إنه منقذها من الضجر والملل والجمود؛ فهم مثل "فالينا" في مسرحية (العم فانيا) التي كانت تموت من الضجر موتًا بطيئًا لأنها لا تعمل عملاً خلاقًا.

فمصطفى محمود يلتقي مع تشيكوف في الإيمان بالإنسان الإيجابي الذي يجب أن يعمل ليغير حياته ويفيد بالتالي مجتمعه؛ لأن العمل كما يقول فلاديمير برميلوف في كتابه عن تشيكوف (هو الشيء الوحيد القادر على إبداع الجمال الإنساني) ولقد بين تشيكوف على لسان بطله استروف في (العم فانيا) صورة الجمال الذي يريده في الإنسان (يجب أن يكون كل شيء في الإنسان جميلاً محياه.. وثيابه.. وروحه.. وعقله) كما يلتقي مع تشيكوف أيضًا في الأسلوب الساخر الذي يستخدمه في معالجة القضايا والأفكار، فمصطفى محمود يسخر من التفاهة العقلية ويسخر من الإنسان الذي يمتهن فكره وثقافته والذي لا يُعْمِل عقله فيما يعترضه من مشاكل كما في قصة (المعجزة) التي يسخر فيها من التنويم المغناطيسي ومن يؤمنون به، وتشيكوف يسخر من رجال الفكر الذين يتهاونون في حقهم إرضاء لرجل ثري جاهل ويتضح ذلك في قصة (القناع).

وإذا نظرنا في أعمال مصطفى محمود وخاصة مجموعته الأخيرة (رائحة الدم) نجد أن مصطفى محمود يؤكد فيها أفكاره التي سبق عرضها؛ ولذا فهي امتداد لإنتاجه القصصي السابق والتي تتركز في البحث عن الإنسان الإيجابي المتحرر فكرًا وعملاً، وفي هذه المجموعة لا يترك أبطاله حيارى بين (إلى أين) و(لا أعرف) ولكنه ينير لهم الطريق دون تدخل مباشر منه؛ ففي قصة (الشيء المجهول) يحاول بطلها الخلاص من الملل الذي يقضي عليه وينخر أعماقه، إنه لا يطيق حياته الرتيبة المتكررة رغم الحياة المترفة التي يعيشها.. إنه يضيق بزوجته وبالقصر وبالخادم ويفكر في وسيلة لإنقاذ نفسه، ويبدأ محاولاته فمرة يقيم الحفلات حيث يجتمع الأصدقاء، ومرة يلعب القمار ولكنه يكتشف أن لعب الورق لا يعوض الإنسان عن الحياة، وفجأة يجد الشيء المجهول الذي يبحث عنه في كلمات يسمعها من رجل عجوز في السبعين من عمره فيها الألم والثورة والأمل، إنه لا يريد أن تذهب سبعون سنة

هباء بلا أمل (إني آكل صحيح.. والكلب يأكل.. وكل مخلوق في الأرض له رزق.. ولكني آدمي ليست حياتي كلها خبزًا وإدامًا.. إن لي ابنًا ولا أريد أن يحفر ابني الأرض وينزح مثلي المجاري ويدك الأسفلت وأن تذهب سبعون سنة من العذاب والشقاء بلا كفاءة، إن الحياة لا طعم لها بلا أمل، أريد أن أعلم أن فأسي هيأت الأرض لحياة أصلح وأن عرقي لم يذهب عبثًا.. أريد أن يكون ابني متعلمًا يقرأ ويكتب ولا يجلس مثلي على الأرض، أهذا الأمل حرام على أمثالي؟) ويصرخ العجوز طالبًا من الله أن يطيل عمره عشر سنوات أخرى فيربي فيها أولاده ويعود بطلنا إلى بيته بعد ما يكتشف أن الحياة الحقيقية ليست في الأكل والشرب بل في أن يعيش الإنسان من أجل أمل والأمل هو الذي يدفع الإنسان إلى الكفاح للوصول إليه، وهذا الكفاح هو الذي يعطي للحياة طعمًا..وتحقيق الأمل يعطي الكفاح قيمة ومعنى. وتذكرنا شخصية الرجل العجوز بشخصية جريجوري الخراط في قصة (الألم) لتشيكوف الذي يقول للطبيب بعد موت زوجته آه لو استطعت فقط أن أعيش ست سنوات أخرى، فرد عليه الطبيب ما الداعي إلى ذلك؟ فقال: لم يكن الحصان حصاني، وعلي أن أرده وعلي أن أدفن العجوز، آه ما أسرع ما ينقضي كل شيء في العالم).

و(شيء مجهول) تلتقي مع قصة (روبابيكيا) – أكل عيش – في شعور بطليهما بالملل والخواء النفسي ولكن في (شيء مجهول) يهتدي البطل إلى الشيء الذي لم يعثر عليه بطل قصة (روبابيكيا) وكما أن الرتابة والنمطية في الحياة تقتلان الإنسان فإن الوحدة أيضًا تقتله، ففي قصة (حياة الأعزب) يعالج المؤلف مشكلة الوحدة، وما يعانيه الأعزب نفسيًّا من جراء وحدته التي يقنع نفسه بها ويردد دائمًا أنه يفضل الوحدة ليتمتع بحريته، ويكشف المؤلف عن سبب وحدته وسبب رفضه الزواج؛ لأنه إنسان يبحث عن الشيء الذي لا ينتهي بين الزوجين بعد خمس دقائق، إنه يبحث عن شيء يستمر طوال الحياة فيعطي لها طعمًا.. وهذا الشيء يتجسد في الحب.. ولكن أي حب؟ إنه الحب الروحي الذي لا يتفجر لكون هذا ذكرًا أو أنثى ولكن "لكونه فلان ولكونها فلانة، ولكونهما مشدودين بخيط من الفضول والدهشة والإعجاب كل منهما يجب أن يصغي إلى صوت الآخر حتى ولو لم يكن يتكلم.. يصغي إلى صوت وجوده".. ولأنه لا يجد هذا الحب الذي تلتقي فيه الأزواج وتستمر في ظله العلاقات يفضل أن يعيش وحيدًا.. وإن كان يتآكل ويحترق!!

والمؤلف هنا يؤكد ما سبق أن قاله في بعض القصص في مجموعتي.. (أكل عيش) و(عنبر ٧) عن الحب وكيف أنه الطريق الوحيد لخلاص الإنسان مما يعانيه من آلام.. فالحب هو الذي جعل الزوجة في قصة (حلاوة السكر) ترجو الدكتور ألا يخبر زوجها بأنه مريض بالسل حرصًا على حياته، ويجعل أيضًا الزوج يطلب الطلب نفسه حرصًا على زوجته وكذلك

جعل الزوجة المدرسة في (قصة حنان) تتنازل عن كبرياء المثقفة وتعرف أن واجبها هو الاهتمام ببيتها لإسعاد زوجها، ويسخر مصطفى محمود في قصة (السجين) من عيب آخر وهو الروتين؛ فالشاويش الذي يحرس السجن تحكمه أوامر وتفرض عليه أن يقف تحت الشمس الحارقة وتجعله أيضًا يرفض طلب السجين الذي يريد أن يشم الهواء وتمر لحظات ويقع الشاويش ميتًا من ضربة شمس.. ويأتي عسكري آخر. وينهي مصطفى محمود القصة بكلمات ساخرة يحملها كل ما يريد أن يقوله "وهنا أحس السجين أنه حر.. أما الشاويش فهو مسجون في الصحراء سجين لأوامر لا يدري متى تضربه الشمس هو الآخر فتقتله!!

وفي قصة (رسالة من الجحيم) يكشف عن تفاهة زوجة تحيل حياة زوجها المهندس جحيمًا لأنها لا تهتم بشيء إلا بجمالها وتطالبه دائمًا أن يترك عمله ويهتم بأنوثتها.. ولا تقتنع بما يقوله لها عن الكفاح من أجل تأمين مستقبلها ومستقبل الأولاد، إنها مأساة الإنسان الواعي عندما توقعه الظروف تحت رحمة إنسان تافه.. سطحي التفكير.

وكما بين الكاتب في قصة (شيء مجهول) أن سعي الإنسان من أجل تحقيق أمل هو وسيلة لخلاص الإنسان نجده في قصة (دروس في الخشونة) يقدم وسيلة أخرى وهي الكد والتعب والمخاطرة والاعتماد على النفس، تبلور هذا الدرس في رحلة شاقة عبر الصحراء اقترحها صديق له مترف يؤمن بأن متعة الحياة في الراحة والاطمئنان وتنتهي الرحلة ويقتنع الصديق بوجهة نظر صديقه "ويعرف أن الحياة مش راحة، الحياة تعب وأخطار ومجازفة، وعلى الإنسان أن يتعود على اجتيازها في نضال ليشعر بقيمة الحياة".

وتأتي بعد ذلك قصة (أنشودة الدم) وفيها يبين المؤلف أن الحرب يشعلها القادة والمصلحون لأنهم يجدون تبريرًا لإشعالها ويستطيعون خداع الناس ويسوقونهم إلى الموت وهم حالمون مبهورون بأفكارهم، هؤلاء القادة يجدون متعة في حصد الأرواح بالجملة إرضاءً لغرورهم التابع من إحساسهم بالتفرد على باقي البشر.. إنهم يعتقدون أن القتل من صفات القادة وإلا اعتبر الإنسان تافهًا ضعيفًا.. ويبرز ذلك في الحوار بين العجوز وزائره المجهول الذي يعيش على أمل عودته ثانية كما وعده.

- إنك لن تصبح قائدًا إلا إذا استطعت أن تقتل وأنت تفنى، لن تستطيع أن تصنع الحياة إلا إذا صنعت لآخرين الموت.. هذه سنة الوجود ولكن هذا شيء فظيع.
- أنت تقول هذا لأنك رجل تافه، أنت واحد من ألوف التافهين بلا إرادة ممن لا عمل لهم سوى أن تصدر إليهم الأوامر، أوامرنا لن تكون شيئًا في يوم من الأيام، أنت وغيرك مسامير صغيرة في العربة التي نقودها.

وفكرة هذه القصة تناولها الكاتب من قبل في قالب مسرحي (الإنسان والظل) وهنا تناولها دون إضافات جديدة، بل نجد نفس الحوار الموجود في المسرحية، وكان الأولى به أن يقدم قصة جديدة بدلاً من ضياع الجهد في التكرار.

وأخيرًا لقد استطاع المؤلف أن يقنعنا بأفكاره من خلال عرضه للنماذج التي اختارها غير معتمد في ذلك على الإقناع المباشر المعتمد على التقريرية والخطابة، ولكن من خلال لقطة سريعة أو صورة شعرية تتناغم فيها الألفاظ التي يختارها بعناية، واهتمامه الشديد بالصورة يجعله لا يهتم كثيرًا بذكر أسماء أبطاله لأنهم عنده رموز لأفكار وقضايا تتعلق بالإنسان عامة: وهو يسوق هذا كله في قالب فني يلتحم فيه الشكل بالمضمون.

مديحة
مجموعة قصص

تأليف: عباس خضر

إن المذاهب الأدبية كثيرة، منها: الفن للفن والفن للحياة.. وغير ذلك من المذاهب التي تشيع فترة معينة حسب ظروف المجتمع، وهذه الظروف قد تكون سياسية أو اجتماعية ولكننا نرى أن بعض هذه المذاهب يكتب لها البقاء والاستمرار ويكتب للبعض الآخر الاختفاء؛ وذلك لأنها مذاهب مستوردة من الغرب وغير متفقة مع واقعنا الذي نعيشه.. ولقد غيرت ثورتنا مجتمعنا تغييرًا جذريًّا يتناسب وأهدافها من خلق مجتمع جديد يسود أفراده التعاون وخلق المواطن الصالح المتفهم لمبادئ مجتمعه الجديد.. المتفاعل معها.. وهنا يأخذ الأدب دوره في معركة البناء وفي خدمة المجتمع..ويتحتم على الأدباء تجنيد أقلامهم بإخلاص لخدمة رسالة المجتمع الجديد.. وليس معنى ذلك أن يخرجوا لنا إنتاجًا مسفًّا بعيدًا كل البعد عن الجودة الفنية.. ومثل ذلك الأدب المملوء بالطبل والزمر يسمى بأدب الدعاية أو الأدب الهاتف.

ولقد رأينا من هذا الإنتاج الكثير، ولم يكتب له البقاء.. ولكن على الرغم من ذلك نجد أدباء تفهموا رسالتهم وأحسوا بمسئوليتهم تجاه أنفسهم وتجاه مجتمعهم، فعاشوا في أحداثه وتفهموها جيدًا وتفاعلوا معها فأخرجوا لنا أدبًا عظيمًا في جودته الفنية متضمنًا أفكارًا بناءة جديدة، فتناولوا في إنتاجهم أحداث الماضي لتكون عبرة وتنير الطريق أمامنا في مجتمعنا الجديد.. ومن هؤلاء الأدباء الذين تفهموا رسالة الأدب الحقيقية وما يجب أن يكون عليه الأديب من إخلاص في خدمة المجتمع: الأستاذ عباس خضر، لقد أثبت في مجموعته الثانية (مديحة) التي صدرت له حديثًا أنه أديب إنسان، فهو يكشف عما في النفس البشرية من حب وكره وأنانية واستغلال وضعف وقوة، إنه يسجل هذه الانفعالات تسجيلاً يتجلى فيه الصدق الفني، إنه يصور أحاسيس الإنسان العادي.. ويقدم لنا نماذج حية قريبة منا نلمسها في حياتنا اليومية.. وما (البلياتشو) إلا إنسان عادي نراه كل يوم فالتقطه المؤلف وغاص في أعماقه وصوره في لحظة ضعفه أمام إغراء الورقة ذات الخمسة جنيهات، ثم صور انتصاره أخيرًا على هذا الضعف لأنه إنسان خَيِّر؛ فالإنسان الخير هو ذلك الإنسان الذي تتغلب عوامل الخير فيه على عوامل الشر.

كما قدم في (الكلب واللصوص) صورة أخرى كشف فيها عن القدر الذي يسيطر على النفوس الضعيفة التي لا تقيم وزنًا للصداقات، ويتمثل ذلك في شخصية (إبراهيم) اللص الذي

أراد أن يسرق نقود صديقه وزميله في العمل (سيد) ولكن (ركس) وهو اسم الكلب الذي يملكه (سيد) يضيع على اللص الفرصة ويكشف أمره؛ ويروح ركس ضحية لرصاصة غادرة أطلقها عليه أحد أعوان (إبراهيم).. وأخيرًا يشعر إبراهيم بجرمه ويعضه الندم ويعرف أن الكلب أفضل منه، ويتمثل ذلك في حديث الشرطي له:

"إبراهيم الجندي..! والله وقعت يا إبراهيم.. أصلك عرفت تنفد من حوادثك في الشركة.. لكن آدي أنت وقعت...".

وحانت منه التفاتة إلى جثة الكلب تتابع كلامه وهو يهز رأسه أسفًا:

يا ريت الرصاصة جت فيك انت يا ابراهيم.

ونكس إبراهيم رأسه وهو يقول في نفسه: يا ريت".

وكلمة "يا ريت" عبر بها المؤلف عن معانٍ كثيرة جالت في نفس إبراهيم حول شعوره بخطئه وشعوره بأن الكلب أفضل منه.. وتتجلى المشاعر الأبوية الصادقة في قصة (مديحة) ومع أنها تجربة ذاتية إلا أنه أبرزها في صورة عامة عند كل الآباء تجاه أبنائهم على لسان السائق في حواره بعدما زالت الكلفة بينه وبين الأستاذ عبد العزيز والد مديحة، وأحس أنهما شخص واحد وحدت بينهما المشاعر الأبوية.

"قال السائق وهو يدوس بقدمه مفتاح البنزين ويشعر بسرور خفي لأن الحاجز الذي كان يحس به بينة وبين الأستاذ عبد العزيز قد ذات.

- يا سلام يا أستاذ...
- عبد العزيز.
- يا سلام يا أستاذ عبد العزيز.. بنات حلوين.
- بنات مين يا أسطى؟
- بنت حضرتك، وبنتي، التلميذة اللي كانت بتعيط والتلميذة اللي وصلتها للجنة الجيزة، والدكتورة اللي بتشتغل في طنطا، والمراقبة.
- كلهم حلوين.
- حلوين إزاي.
- حلوين مش بالزواق وما أشبه.. لا حلوين بالمعنى.

وهكذا استطاع أن يزيل الحواجز بين عبد العزيز الأستاذ الذي يمثل طبقة معينة وبين السائق الذي يمثل طبقة أخرى، أحس السائق بشعوره بأنه قريب من هذا الأستاذ لأن له ابنة مثل ابنته.

والقصة القصيرة تعتمد على الإيجاز بدلاً من الإسهاب في الشرح، والتلميح بدلاً من الإفصاح، وإننا نلمس ذلك في كتابته فهو يستعمل الكلمة الواحدة التي تشع معاني كثيرة وتغني عن الوصف الطويل، ففي قصة (مديحة) يخاطب الأستاذ عبد العزيز ابنته عندما وقف يستعجلها:

"يالله يا مديحة يا حبيبتي.. التاكسي زمانه جاي" ثم يصور شعور الأب في استعماله كلمة "يا حبيبتي" فيقول: لم يكن مقصودًا أن يناديها "يا حبيبتي" كما تفعل أمها، لولا أنها الآن ضعيفة من أثر حمى "البراتغود" التي أصابت المسكينة أخيرًا ولم تتركها إلا منهوكة القوى على باب الامتحان".. فكلمة يا حبيبتي مشحونة بعاطفة جياشة، بحنان أبوي، وهذه الكلمة أغنت عن الإسهاب في وصف عاطفة الأب.. ثم في قصة "دروس خصوصية" يضع مبدأ يسير عليه الناس ويبين أنهم لو ساروا عليه لما تعقدت الأمور، فيقول على لسان المدرس: لا.. لا يمكننا جميعًا، الدكتور والناظر وأنا وأمثالنا.. أن نؤدي أعمالنا دون أن نضطر الناس إلى أن يدفعوا مقابل ما من حقهم أن ينالوه من غير دفع.. ونكلف بعضهم ما لا يطيق.. وفي بقية القصص "تلميذة زمان"، "اختفاء جليلة" "وزوج المدرسة"، و(بداية)، و(أبو شنب) وقصة عابد وعايدة يتناول فيها المؤلف عادة المجتمع ومظاهر الفساد في العهد الماضي، كما يصور أحوال اللاجئين في قصة (عابد وعايدة) ولكنه لم يعطنا صورة واضحة تجعلنا نتعاطف مع هؤلاء اللاجئين، فهذه القصة لم تأت في قوة القصص الأخرى ومستواها.

وأخيرًا في هذه المجموعة يكشف المؤلف عن الآفات التي تنخر في جسم المجتمع ويسبر غور النفس البشرية، بنظرة فنان مجرب خبر الحياة.

دراسات
في القصة القصيرة

لقد سجلت القصة القصية في الستينيات نشاطًا كبيرًا نتيجة للأحداث التي مرت بالمجتمع وبخاصة بعد هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ فقد سادت القصة القصيرة تيارات تجديدية مختلفة خاضها بعض الشبان بجرأة غير متأنية؛ مما دفعهم في متاهات الغموض والعبث وزادوا القارئ حيرة على حيرته وضيقًا على ضيقه بدلاً من الأخذ بيده وبنائه بناء سليمًا يساعده على القيام من جديد بدوره الفعال في بناء حياته المستقبلية مستشرقًا الأمل. وليس معنى هذا أننا نرفض هذا الاتجاه، ولكن نرفض الانحراف بوظيفة الأدب باسم التجديد.. إننا نقف بجانب كل جديد عاقل متزن يهدف إلى تأكيد قيم الحق والخير من خلال الكلمة الفنية المضيئة دون يأس وتشاؤم، وهذا ما أكده بعض الشبان مثل زهير الشايب وعبد العال الحمامصي وأحمد الشيخ وعبد البديع عبد الله.

وفي هذه الدراسة تناولت بعض الكتاب الشبان الذين رسخت أقدامهم في ميدان القصة ولم يتوقفوا بل واصلوا طريقهم باجتهاد وتصميم.. تناولت كل واحد على حده مبرزًا سماته الفنية وطريقة أدائه، ولقد فضلت أن يكون لكل مجموعة من الكتاب أتناولها بالدراسة خيط واحد يجمعهم، إن الهدف من هذه الدراسة هو تقييم لحركة القصة القصيرة من خلال الشبان وإبراز اتجاهاتها الجديدة ومدى مواءمتها للمجتمع؛ ولنتبين بموضوعية الإضافات التي أضيفت لبعث الحركة والنشاط في القصة القصيرة.

الأصالة في الفن تتضح عند الفنان الذي يعمل دائمًا على تطوير فنه مضمونًا وشكلاً حتى يواكب عصره ويعبر عنه مشاكل وقضايا مجتمعه تعبيرًا لا يبدو فيه غريبًا عن مجتمعه أو منفصلاً عنه. ولا يتأتى هذا إلا بالتعبير الواضح البعيد كل البعد عن الإغراب والتعقيد فكرًا وشكلاً.. ولا تتأتى أيضًا هذه الأصالة إلا إذا كان تطوره امتدادًا طبيعيًّا لتراثه، فيضيف إليه وينميه حتى يصل به إلى الأداء الفني المتطور.

وأعتقد أن أصالة الفنان تتأكد كلما كان فكره واضحًا ويحسن توظيف أدواته لتوصيل هذا الفكر.

ولقد اخترت أربعة من الكتاب الشبان لمست حرصهم الدائم على تطوير فنهم وبعدهم عن الظواهر السيئة في موجة التجديد في القصة.

وهؤلاء الكتاب هم: زهير الشايب، عبد العال الحمامصي، أحمد الشيخ، عبد البديع عبد الله.

وسأبدأ بمجموعة "المطاردون" لزهير الشايب.

المطاردون والاغتراب

في هذه المجموعة يصور الغربة النفسية التي يعانيها الكاتب للإنسان الذي يحس في لحظة ما أنه فقد كل شيء.

كما يصور الغربة المكانية التي يشعر بها الريفي القادم إلى المدينة، وشخصيات هذه المجموعة إما مطاردة من نفسها، كما في قصة "أوراق الخريف" أو من المجتمع، كما في قصة "الغريب" أو "المطاردون"، لهذا فهذه الشخصيات قلقة متوترة، تتقاتل لتنفس عن هذا التوتر كما في قصة "الرحلة" حيث ينقسم ركاب القطار إلى فريقين يواجه بعضهما البعض مواجهة عنيفة ليؤكد كل منهما ذاته، والكاتب هنا يقدم صورة لحياتنا وللسلوك العام في الأماكن العامة بما فيه من فوضى وقلق، ولقد أعطى الكاتب هذه الرحلة تصويرًا فوتغرافيًّا قدمه لنا بكل دقة ليعطي لنا صورة كاملة عنه، ولقد صور هذا القلق والتوتر في إيقاعات سريعة تتمثل في الحوار السريع والمزج بين جميع الموجودات داخل عربة القطار.. النور.. أصوات الركاب.. أصوات عربات القطار.

وإذا كان الكاتب قد عبر عن هذا القلق في هذه القصة فإنه في قصة "أوراق الخريف" يتناول المشكلة الدائمة – مشكلة اختلاف الأجيال فكرًا وسلوكًا.. إنه يصور الغربة النفسية لعلي بك المسيري الذي يعيش وحيدًا بعد خروجه على المعاش لأنه لم يتزوج؛ وذلك لرفضه المستمر في شبابه الزواج ابتعادًا عن مشاكل الزواج.. فرأيه في الزواج أنه عذاب وأن الزوج كالنحل يصنع العسل لغيره..

ولكنه الآن نادم يشعر بالخواء النفسي ولقد طرح الكاتب ما يجول بنفسه من لوم وندم بطريق غير مباشر عن طريق إسقاطات من خلال حوار بين الجالسين بجواره على المقهى المشجعين للكرة.

- عجزوا.. يجب أن يحالوا إلى المعاش.
- لا يا سيدي، يأخذون زمنهم وزمن غيرهم.

وهنا يضيق المسيري بك بنفسه ويشعر بالألم ولم يخفف ذلك عنه إلا التقاؤه بأحد موظفيه الشبان فيقدمه الشاب لصديقه ويمتدح المسيري بك ويمتدح أيامه فيسعد بذلك سعادة وقتية سرعان ما تذهب عندما يرى صديق عمره الوحيد مسعود أفندي متجهمًا فيسأله عن سبب كآبته فيخبره بأن ابنه الصغير تشاجر مع أمه بسبب المذاكرة وأخبرته بأنني غاضب عليه فكان رد ابني "ماذا لو غضب.. ليبحث له عن مِيتَةٍ".. لأن كلامي قد كثر منذ أحلت إلى المعاش.. فالكاتب هنا يوصي للمسيري بك بالنهاية المحتومة له التي سيلاقيها وحيدًا..

والمسيري بك رجل شجاع لم يظل على أفكاره القديمة التي أضاعت منه الفرص؛ فهو يحس بالندم ويعترف بالخطأ؛ لأنه أحس الآن بأنه عديم الفائدة لا يعيش إلا لنفسه فقط.

وإذا كان الكاتب في هذه القصة يقدم لنا شخصية مطاردة من نفسها.. يطاردها الندم والضياع والخواء النفسي الذي ينخر في أعماقها فإنه يقدم في قصة "الغريب" وفي قصة "المطاردون" شخصيات مطاردة، يدين الكاتب من خلالها مجتمع المدينة الذي يرفض كل واحد غريب عليه، وينظر له نظرة شك وريبة، وبيّن الكاتب أن مجتمع المدينة يرى أن الغريب عضو شاذ مرفوض لا يمكن أن يحتويه ليصبح واحدًا من هذا المجتمع يدرب فيه.. ففي قصة "الغريب" نرى فوزي القادم من الريف يسير في شوارع المدينة يروح عن نفسه برؤية الشوارع النظيفة والأضواء المتألقة والبنات الجميلات، كم منّى نفسه بمصاحبة واحدة من هؤلاء ولكن لم تتحقق أمنيته.. يقبض عليه في الشارع لأنه لا يحمل بطاقته الشخصية، ويقاد إلى القسم في صحبة المتشردين فيشعر بالمهانة والذل وتذكر مركزه المهاب في قريته.. تذكر أنه يسير في القرية بلا بطاقة لأنه معروف لدى الجميع فلا قيمة للبطاقة، ولكنه عرف قيمتها عندما سئل في القسم عنها وأنها السبيل الوحيد لإثبات شخصيته "تلك أول مرة يجد فيها اسمه منفصلاً عن ذاته.. عن وجوده.. وعلى الرغم من أن هذا السؤال لم يوجه له من قبل ولم يواجه به هو نفسه إلا أنه كان يدرك – كأمر لا يقبل الجدل والنقاش – أن اسمه جزء منه، من مكوناته، بل إن اسمه هو وجوده، فمن يشك إذن في وجوده؟ ففوزي يواجه بأنه لا قيمة له في المدينة وأنه يمكن أن يكون أي شيء إلا فوزي ما دام لا يحمل ما يثبت شخصيته.. وينتهي الموقف بخروجه من القسم بوساطة شيخ الحارة كالمعتاد.

فهنا نرى أن المدينة تقف موقف الرفض لكل وافد جديد إليها، بل تقف منه موقفًا عدائيًا، وإني أعتقد أن هذا الموقف غير موجود في المدينة، فإننا نرى أن المدينة تفتح ذراعيها لكل غريب وتفسح صدرها له ليعيش بين أهلها، ويذوب فيها ويصبح واحدًا من أهلها.

وإذا نظرنا في قصة "المطاردون" نجد الكاتب يؤكد فكرته السابقة في قصة "الغريب" ولكن بصورة بانورامية مخيفة للإنسان الغريب القادم من القرية مطاردًا من أهل المدينة جميعهم ومضطهدًا، فإذا كان في قصة الغريب أدى به إلى السجن فإنه في "المطاردون" يودي بحياته بعد المطاردة الطويلة الرهيبة التي اشتركت فيها المدينة كلها.

وأعتقد أن الكاتب في غنى عن حشد هذه المظاهرة الضخمة ليوصل ما يريده إلى القارئ مكتفيًا بحادثة واحدة يرتكز عليها يعمقها ويحدد أبعادها.

وزهير الشايب في هاتين القصتين تناول غربة الإنسان في المدينة عن طريق الكشف عن أعماق الشخصيات وإظهار تناقضاتها في السلوك والطباع التي تختلف عن سلوك وطباع

أهل الريف؛ الأمر الذي يجعل القادم من الريف يرفض المدينة لا كمكان ولكن يرفض عاداتها وسلوكها ويظل متمسكًا بطهره ونقائه رغم معايشته لأهلها، وهذه الصورة نجدها عند عبد العال الحمامصي، فقد صور في قصة "التذكرة"، وفي قصة "الصعايدة" الفرق بين أهل المدينة وأهل القرية، ففي "التذكرة" نجد البطل القادم من الصعيد ليبحث عن عمل تنفد نقوده فيذهب لصديق له ليدبر أمر النقود فلم يجده.. ركب الأتوبيس عله يقابل أحد البلديات فيقترض منه ثمن التذكرة للعودة إلى بلده.. استطاع أن يزوغ من الكمساري ولكن يكتشف المفتش أمره ويسخر منه وكذلك الركاب ويحسبونه لصًّا، وأخيرًا يقذف به الكمساري إلى الخارج قبل أن تتوقف العربة فينكفئ على وجهه. فهو هنا يبين أخلاقيات المدينة فأهلها لا يعرفون معنى الرحمة في معاملاتهم وسلوكهم "إنها مدينة مات قلبها"... قد تكون بلدتي الصغيرة كئيبة بأحزانها وتعاستها، ولكن قلوب الناس فيها تنبض بعواطف المحبة، تملك أن تعطي حرارة المشاركة. لا يشعر الإنسان فيها بصقيع الوحدة..

فالإنسان هنا يرفض شراسة المدينة وقلبها الخالي من العطف والحنان، ولذا فهو يشعر بالقرف، لماذا لا يشعر بالقرف وقد رأى رجلاً يرفض أن يتخلى عن صحيفته ليغطي جثة فآثر الهرب من المدينة لاختلاف عاداتها وأخلاقياتها مع عاداته وأخلاقياته.. هرب لأنه لا يريد أن يموت قتيلاً في مدينة لن يهتم ناسها حتى بأن يضعوا جثتي تحت جدار.. سيلقي كل عابر نظرة.. ثم يواصل مسيره"...

والحمامصي يؤكد في قصة "الصعايدة" معنى المحبة في الصعيد والتعاون الذي أشار إليه في قصة "تذكرة".. وسيأتي الحديث عنهما.

من هذا نرى أن الحمامصي يعري المدينة ويكشف أعماقها ويبين مدى التناقص الدائم بين إنسان المدينة وبين إنسان القرية، وسيظل هذا الاختلاف بينهما ما دام الاختلاف في العادات والأخلاقيات، فالريفي هنا لم يقف من المدينة موقف المتفرج على شكلها الخارجي ولكنه عايشها بكل وجدانه..

نعود الآن إلى زهير الشايب لنتابع رحلتنا معه لنرى نموذجًا آخر من الموظفين الذين يشلهم الخوف من المدير ويزلزل كيانهم ويجعلهم عبيدًا له يعملون تحت نور اللمبة الحمراء في قصة "النور الأحمر" فهذه اللمبة هي دليل وجوده.. وفي نهاية القصة يفجر الكاتب موقفًا ليكشف غياب المدير ويعري ضعف الموظفين الذين يرضون بالخضوع للمدير.. يأتي موظف ثائر يريد أن يوقِّع بعض الأوراق من المدير ويقتحم حجرته فلا يجد أحدًا ويكتشف أن المدير في أجازة لمدة خمسة أيام؛ وبهذا يعري الموظفين ويزلزل أعماقهم ويضعهم أمام أنفسهم،

يسوق هذا في سخرية لاذعة هادفًا التحرر من هذه البيروقراطية ومن الخوف الذي يجعلنا عبيدًا للمبة الحمراء..

وفي قصة "المهرجان" يحتفل الشعب بذكرى أحد الزعماء ويحضر صديق الزعيم ليلقي كلمة في هذا الاحتفال فيصور الكاتب لنا تردده وتأثره كما يكشف عن شخصية هذا الزعيم من خلال المونولوج فتعرف أنه كان يتاجر بوظيفته من أجل إرضاء الإنجليز..

ورأيي أن القصة – كما قال الأستاذ مصطفى السحرتي عنها في ندوة اشتركنا فيها في دار الأدباء لمناقشة هذه المجموعة – تحتاج إلى تبرير مقنع؛ لأن اتهام الزعماء أمر لا يؤخذ ببساطة كما تناولها الكاتب في هذه للقصة.

أما في قصة "القضية" فالكاتب يؤكد فكرة الشك والحيرة التي تسيطر على الغريب في المدينة، وأن هذا الشك الذي يبدو على وجهه قد يوقعه في مشكلة كما حدث في قصة "المطاردون" وفي قصة "القضية" يتهم حسن يوسف عبد الله بالتزييف.. ويحاول أن يدافع عن نفسه ولكن يقبض عليه كمساري الأتوبيس وبعض الركاب ويذهبون به إلى القسم.. ويجري الضابط التحقيق معه محاولاً أن يدفعه إلى الاعتراف ليحصل بعد ذلك على الترقية.. ويسخر المتهم من الضابط ومن سذاجته فيعترف بأنه مزيف، وأثناء التحقيق يدق جرس التليفون ويعرف الضابط أن زميله قبض على العصابة الحقيقية فيكتشف الضابط أن المتهم كان يسخر منه فيضربه ويصيح "لو قيل لك ارم بنفسك في النيل تفعل" وهنا يختفي عنا يوسف ويحس بالشفقة على الضابط فيبكي ويخبره بأنه المزيف الحقيقي مضحيًا بنفسه حتى يحصل الضابط على الترقية فيرفض الضابط بعد أن تثبت براءته..

فالكاتب يثبت أن أي إنسان في لحظة التردد والضعف يمكن أن يقع في مشكلة تؤدي بأمنه وبحياته ولا ينقذه منها إلا بطاقته الشخصية كما في "المطاردون" أو ظهور الحقيقة كما في هذه القصة.

إنه يريد أن يبين أن الإنسان يحمل دليل إدانته وبراءته، ويرجع ذلك إلى الظروف التي يوجد بها فهي التي تحدد الإدانة والبراءة.

ولقد اتبع الكاتب في هذه المجموعة الشكل التقليدي واعتمد على الأسلوب السردي التحليلي. والكاتب لماح دقيق الملاحظة وهذا جعله يهتم بالتفاصيل الدقيقة التي يمكن الاستغناء عنها. إن زهير الشايب له مستقبل كبير في عالم القصة الذي يخوضه مسلحًا بالموهبة الأصيلة والثقافة الواسعة.

رحلة الخلاص في قصص الحمامصي

الأصالة في الفن تتضح عند الفنان الذي يعمل دائمًا على تطوير فنه شكلاً ومضمونًا حتى يواكب عصره ويعبر عن مشاكل وقضايا مجتمعه تعبيرًا لا يبدو فيه غريبًا عن مجتمعه أو منفصلاً عنه، ولا يتأتى هذا إلا بالتعبير الواضح البعيد عن الأغراب والتعقيد فكرًا وشكلاً.. ولا تتأتى أيضًا هذه الأصالة إلا إذا كان تطوره امتدادًا طبيعيًّا لتراثه، فيضيف إليه وينميه حتى يصل به إلى الأداء الفني المتطور.. وأعتقد أن أصالة الفنان تتأكد كلما كان له فكر واضح يدافع عنه ويوظف له فنه في أداء فني متقن.

وعبد العال الحمامصي من هؤلاء الشبان الذين يحرصون دائمًا على تطوير فنهم تطويرًا يعتمد فيه على تراثه. وعندما ننظر في إنتاجه القصصي نرى أن تطوره امتداد طبيعي لإنتاجه، ويمكن أن نقسم إنتاجه القصصي إلى قسمين:

القسم الأول

وتمثلها مجموعته القصصية الأولى "للكتاكيت أجنحة" ما عدا قصة "قابيل يخنق القمر" فهي تنتمي إلى القسم التالي الذي سيأتي الكلام عنه.

وتعبر هذه المجموعة عن قلق الإنسان الريفي ومحاولاته الدائبة للمحافظة على القيم والمثالية في مجتمع المدينة المتطاحنة... شخصيات هذه المجموعة تتميز بالنقاء الفطري ولهذا نجدها تنفر من المدينة التي تتناقض قيمها وأخلاقياتها مع قيم هذه الشخصيات الصعيدية القادمة من أعماق الريف الذي تشعر فيه بالدفء؛ حيث يذوب الفرد في المجموع، يربطهم جميعًا المحبة كما في قصة "التذكرة" التي يبين فيها الكاتب أنانية المدينة ويصور حنينه إلى قريته بأحزانها ومشاكلها فهي عنده أفضل ألف مرة من المدنية الباردة القلب الميتة الأحاسيس، مدينة مات قلبها قد تكون بلدتي الصغيرة كئيبة بأحزانها وتعاستها ولكن قلوب الناس فيها تنبض بعواطف المحبة، تملك أن تعطي حرارة المشاركة ولا يشعر الإنسان فيها بصقيع الوحدة، هنا أشعر بأني مجرد حشرة.

والكاتب في قصصه لم يقف عند الشكل الخارجي للمدينة ولكنه عاش في أعماقها وامتزج بأهلها فرأى الأنانية والمشاعر المزيفة والعواطف المجمدة. رأى إنسان المدينة الذي لا يهتم إلا بنفسه، هذا الاهتمام الذي يدفعه إلى أن يرفض أن يتخلى عن صحيفته لتغطى بها عورة جثة".

وبجانب تناول الكاتب لغربة الريفي وموقفه من المدينة يتناول قضايا أخرى تتصل ببعض العادات والتقاليد في الريف كالميراث والقتل دفاعًا عن الشرف مجرد أن تضبط الفتاة تتحدث مع شاب غريب، ولا تجد في هذه القصص تسجيلاً لحادثة في شكل سردي، ولكن نجد الكاتب يقدم رأيه من خلال موقف يعترض إحدى الشخصيات المثقفة ويصور الصراع الذي يعانيه الإنسان المثقف المطالب بقتل أخته التي تحب شابًا غريبًا؛ انتقامًا لشرف العائلة كما في قصة "المحاكمة" التي يبرز فيها الكاتب أن الشاب المثقف "وجدي" قتل أخته في لحظة تدافعت في ذهنه عادات وتقاليد أهله؛ وليكون في نظرهم الرجل القادر على تحمل المسئولية، وليس الشاب التافه الذي لا ينفع في أي شيء.

وقد يبدو تصرف وجدي الشاب المثقف شاذًا غير معقول، إذ كيف يقتل أخته لعلاقتها بشاب غريب، وأعتقد أن مثل هذا التصرف في بيئة الصعيد التي لها تقاليدها القائمة على المحافظة على الشرف، والأخذ بالثأر، فهذا ليس غريبًا من ناحية، أما من الناحية الأخرى.. فالكاتب بهذا الموقف يبين أن الإنسان عبد لعادات بيئته وتقاليدها، وأنها تحكم الإنسان عامة المثقف وغير المثقف، هذا بجانب أن وجدي متهم بأنه ضعيف ولا ينفع في عمل من أعمال الرجال. وموقف البطل في قفص الاتهام أثناء محاكمته يبدو فيه تأثر الكاتب بقصة الغريب لألبير كامي فبطلها ينظر إلى الجالسين في قاعة المحكمة نظرات فاحصة؛ لأنه غريب عنهم وهذا ما فعله وجدي في قصة "المحاكمة".

وكما صور مجتمع المدينة في قصة "التذكرة" صور مجتمع القرية في قصة "الصعايدة" ولقد بين الكاتب في هاتين القصتين المتناقضتين الفرق بين أهل المدينة وأهل القرية.. فالصعايدة قلوبهم متصافحة يفعمها الحب والتعاون؛ فعباس الأشرم الغريب عن القرية يموت ابنه وهو لا يملك نفقات نقله إلى بلدته، ويتعاون أهل القرية في دفن الابن لأنهم يدركون أنه لا قيمة للصداقة إذا لم يقف الصديق بجانب صديقه في محنته وفي أفراحه "ما فائدتها إن لم تتحول المشاركة في الخير والشر" وإذا كان الكاتب قد عبر عن قضايا مجتمعه فإنه عبر عن مشاكله الذاتية فهو يكشف عن مثاليته التي اصطحبها معه من الصعيد، فهو الإنسان الشاعر الرقيق الذي يتحرك من خلال قيمه ومبادئه، فالفتاة عنده نقطة مضيئة تنير طريقه عندما تتعقد أموره، والحب لحظة إشراق في المجتمع المتطاحن كما في قصة "الشاعر والبنت الحلوة" وهذه المثالية جعلته يتمرد على الوظيفة التي تمتهنه وتحد من حريته وجعلته أيضًا يرفض الفتاة العاملة التي أغرم بها ويمنعه الخجل من مفاتحتها بغرامه وتتقدم هي إليه وتعرض عليه جسدها كما في قصة "الفتى الذي جاء متأخرًا".

فالشخصيات الريفية في هذه المجموعة قادمة إلى مجتمع المدينة مسلحة بقيمها الدينية تحمل عاداتها وتقاليدها وتحمل كل تراث القرية الصعيدية.. إنها تبحث عن الأصالة والجدية من خلال نظرتها المثالية الفطرية، ولذا تصادمت مع المدينة وظلت قلقة ترفض هذا الزيف وظلت تعيش خارج هذا المجتمع المتمزق رغم صراعها المستمر..

إنها شخصيات مثقفة.. ولكن ما زالت عادات القرية وتقاليدها ونظرتها للحياة مترسبة في أعماقها تحركها وتؤثر فيها.. وهذه النظرة المثالية الفطرية أعطت هذه الشخصيات شكلها الخاص في رفضها للأشياء بشكل حازم محدد، وجعلها هذا تتصادم مع المدينة وتظل قلقة ترفض هذا الزيف.. جعلها تعيش خارج المجتمع المدني المتمزق.. ولأن قيمتها ثابتة أصيلة ظلت رغم هذا الصراع المستمر متماسكة محتفظة بذاتها ووجودها وقيمها لأنها تجد فيها الخلاص من الضياع والتمزق اللذين وقع فيهما إنسان المدينة نتيجة سيطرة المادية وضعف الإحساس الديني، وهذا ما سنتحدث عنه في القسم الثاني..

وقصص هذه المجموعة تقليدية نلمس فيها، رغم تخلص الكاتب من البداية والوسط والنهاية، هذه الشروط الثلاثة التي تسيطر على القصة التقليدية، إلا أنه رغم استخدامه الفلاش باك في معظم هذه القصص إلا أنه وقع في السرد المباشر كما في قصة الشاعر والبنت الحلوة التي يحكي فيها قصة الشاب الشاعر المثالي الذي يرفض الذل بكل صوره وفي الأتوبيس يهيم بفتاة حبًّا ويجد في عينيها الاطمئنان والأمان.

وفي قصة "للكتاكيت أجنحة"، "العجوز وشجرة التوت"، "المحاكمة" نلمس سيطرة الكاتب على الحدث، فهو يعمقه إما بتبيان الحالة النفسية لسعاد الأخت الكبرى في قصة "للكتاكيت أجنحة" في ليلة زواج أختها الصغرى، لقد تعاطفنا مع سعاد مثال التضحية من أجل سعادة أختها.. أو يعمق الحدث باستخدام الرمز الذي يعطي عدة معانٍ كما في قصة "العجوز وشجرة التوت" فالعجوز يتشبث بشجرة التوت ويبذل جهده مع المسئولين للإبقاء عليها بدلاً من اقتلاعها. والشجرة ترمز هنا إلى وطن الإنسان، ترمز إلى كل المقومات الأصيلة التي تكون الإنسان.. ولذا حرص العجوز على ألا تقتلع لتظل قائمة؛ لأن حياته مرتبطة بها.

وهذه القصص واقعية، يستمد الكاتب أحداثها – كما رأينا – من النماذج التي استعرضتها سابقًا، من بيئته التي عاش فيها الكاتب، سواء في الصعيد أو القاهرة، وإن كانت بعض القصص كـ "الشاعر والبنت الحلوة" تعبر عن ذاتية الكاتب إلا أنها في الوقت نفسه تعبر عن تجارب وقضايا تحظى باهتمامنا.

القسم الثاني

يتمثل في بعض قصص نشرت أولها في مجموعة "للكتاكيت أجنحة" وهي "قابيل يخنق القمر" في سنة ١٩٦٧، ثم القصص الأربع التالية نشرت في مجلات مختلفة "يوحنا الأمريكي يبشر في الحانة" يوليو سنة ١٩٦٧، "الخلاص" أبريل سنة ١٩٦٧، "البذور والتربية" أكتوبر سنة ١٩٦٩ "الساعة ٢٥" ديسمبر سنة ١٩٧٠.

وتمثل هذه القصص انطلاقة جديدة متطورة للكاتب من ناحية الشكل والمضمون، فقد انتقل من الواقعية ومعالجة المشاكل الاجتماعية، كما انطلق من الذاتية أيضًا إلى مرحلة يمكن أن نسميها المرحلة الفكرية.. فالكاتب يناقش قضايا فكرية تتصل بحرية الإنسان ووجوده.. إنه يعبر عن القلق الذي يسيطر على الإنسان والتمزق النفسي الذي يعانيه في رحلة حياته المليئة بالمتناقضات والمتشابكة العلاقات.. وهو لا يقف إلى حد التسجيل والسرد فقط ولكنه يبين للإنسان طريق الخلاص، ويتمثل هذا الخلاص في التمسك بالدين؛ لأنه مصدر الاطمئنان وسبيل الخلاص من المادية والضياع في تيارات الأفكار الغربية عن أرضنا، كما في قصة "الخلاص" التي يصور فيها الكاتب ضياع مهندس اتهم بالتزوير باطلاً، ولكن الناس صدقت التهمة لأنه إنسان يسخر دائمًا من مشاعرهم الدينية بأفكاره الغريبة، كما أنه فكر في هدم ضريح السيدة عزيزة لتجميل الميدان.

وفي نهاية القصة بين الكاتب أن الخلاص في الرجوع إلى الدين والمحافظة على المشاعر الدينية للجماهير حتى يتقبلوا أي تطور لا يتعارض مع معتقداتهم الدينية فيدفعهم هذا التعارض إلى رفض التطور، وتذكرنا هذه القصة بقصة "قنديل أم هاشم" للأستاذ يحيى حقي؛ أراد بطلها الطبيب القادم من أوربا أن يعالج أهل الحي بوسائل العلاج الحديثة ساخرًا من زيت القنديل الذي يعالجهم به الحلاق فيرفضونه في بادئ الأمر وذلك لأنه أخطأ وسيلة الوصول إلى هذه الجماهير والتفاهم معهم دون تعالٍ عليهم وجرح لإحساسهم الديني، وفي نهاية القصة عندما عرف الطبيب طريق الوصول إلى هذه الجماهير وعرف لغة التفاهم معهم – محافظًا على تقاليدهم – أقبلوا عليه وتقبلوا منه العلاج بالوسائل المتطورة التي تعلمها في الخارج.

وكما يرى الحمامصي أن خلاص الإنسان في هذا العصر في التمسك بالدين يرى الخلاص أيضًا في انتماء الإنسان إلى أرضه بكل قيمها وتراثها.. إن الكاتب يؤمن بالتطور النابع من أرضنا لا من الأفكار المستوردة من الخارج الغريبة عن بيئتنا كما في قصة "البذور والتربة"، ويرمز فيها الكاتب بالأم إلى الوطن.. والابن العاق الضائع يرمز به إلى كل ابن يتمرد على وطنه وعلى قيمه وتقاليده الموروثة الأصيلة، الأم ترفض هذا الابن العاق؛ لأنه

نتاج تزاوج جاء رغمًا عنها نتيجة ظروف فرضته عليها، وتحين فرصة التخلص من هذا الزوج الثقيل وتتزوج من رجل آخر بإرادتها وتنجب منه وتجد الخلاص في هذا المولود المنتظر نتاج هذا الزواج القائم على التفاهم، وتتحدى بهذا المولود الحاقدين الذين يعتقدون أنها "تجاوزت سن الخصب.. الكتب لا تكذب أبدًا.. الدرويش مسح على بطني وباركها قال مكتوب في اللوح أن النبع لن يجف أبدًا..

الغجرية ضاربة الرمل" قالت إن تربتي قابلة للعطاء أبدًا، سأنجب. أقول لك هذه المرة نتاج توافق البذور والتربة، أنها ستلد ولادة طبيعية بالطريق الشرعي لا بالتلاقح الصناعي كما يريد لها الحاقدون الذي يبغون تغيير الحقيقة.

وإذا كان الكاتب قد تناول في القصتين أسباب ضياع الإنسان في هذا العصر وبين له طريق الخلاص.. فإنه في قصته "يوحنا الأمريكي يبشر في الحانة" يدين الظلم عامة.. ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ويتمثل هذا في أمريكا التي تهدد الآمنين و"يوحنا" في هذه القصة أيضًا ينتظر الخلاص على يد ابنه ريتشارد الذي "سيأتي فيخلص العالم.. ويطرد كهنة النقابة وسماسرة الكنيسة.. لن يسوقوه إلى الصليب هذه المرة.. لم يسكته يهوذا.. ولن يحاكمه بلاطس فستحميه الملايين المنتظرة بشبق الخلاص.. ويكون لها لأنه من داخلها جاء وفي البدء كان فيها".

وأحب أن أشير إلى أن الكاتب وقع في هذه القصة في الخطابة كالمعتاد في القصص السياسية؛ ويرجع هذا إلى حماس الكاتب وانفعاله السريع بموقف الاستعمار المتمثل في أمريكا من قضايا الشعوب المناضلة من أجل الحرية والحياة.

ويؤكد هذا المعنى أيضًا في قصة "الساعة ٢٥" التي تتصارع فيها قوى الخير ضد قوى الشر للحفاظ على المولود المنتظر الذي سيجيء ومعه السلام والاطمئنان وتنهزم قوى الشر ويأتي عصر الإنسان الحقيقي.. عصر الحق والخير.

والكاتب في هذه القصة يعبر عن شوق الجماهير للمولود المنتظر.. إنه بالنسبة لهم "جودو" المخلص من الظلم والضياع.

وإذا كان الكاتب في هذا القسم قد لمسنا عنده التطور من ناحية المضمون فإننا نلمس أيضًا خروجه عن الذاتية إلى القضايا الفكرية، كما لجأ إلى الرمزية في قصة "البذور والتربة" وقصة "الساعة ٢٥" كما أنه تخلص من السرد والمباشرة اللذين سيطرا في بعض قصص القسم الأول، ولجأ إلى التركيز والتكثيف والاعتماد على الحوار لتعميق القضية التي يناقشها، كما في قصة "البذور والتربة".

ولقد نجح الكاتب في استخدام الأسلوب الحواري؛ لأنه الوسيلة الناجحة لمناقشة الأفكار التي يريد الكاتب توصيلها إلى المتلقى وتعميقها، ونلمس كذلك تطور لغته، فأصبحت لغة قريبة من لغة الشعر.. كما نجد كل لفظة تؤدي المعنى الذي يريده، كما في قصة "الساعة ٢٥".

دائرة الانحناء.. صور اجتماعية

ماذا يريد مؤلفها أن يقول؟

أحب أن أبدأ بهذه الكلمات، لأنها المحور الرئيسي الذي تدور حوله قصص المجموعة.

"أنتم عبيد في عصر الحرية.. أنتم كومبارس بدون مشاعر.. هياكل تسند التمثال.. تحركوا.. تحركوا.. إذا تحركتم سقط".

هذه الكلمات التي قالها الموظف المظلوم في قصة "الكرسي المهزوز" تعبر عن مأساة الإنسان في هذا العصر.. هذا الإنسان المنعكسة همومه على شخصيات مجموعة "دائرة الانحناء".. لأحمد الشيخ.. التي تتحرك حاملة فوق كاهلها هموم العصر وأحزانه، وهذا الموظف هو أيضًا الأسطى محمود في قصة "صيف الذباب" وهو الطبيب البيطري عبد الحق في قصة "ذيول التحدي" والممثل المعطلة مواهبه الفنية في قصة "كتلة الصمت"؛ ففي قصة "صيف الذباب"، يصور الكاتب أمنية الأسطى محمود التي أوشكت أن تتحقق وهي أن يكون رئيسًا للوردية لأنه بشهادة المهندس المشرف أكفأ من يقوم بهذه الوظيفة، وتهدده هذه الأمنية في أحلامه ولكن الذباب يقضي على سعادته ويبدد حلمه كما بدد زميله عبد الونيس الحلم والواقع بحصوله على الوظيفة المرشح لها الأسطى محمود رغم عدم كفاءته وشهرته بين زملائه بالإهمال والسلوك الرديء ولكنه استطاع بطرقه الخاصة لدى المسئولين التي انتصرت على تقرير الباشمهندس وشهادته بجدارة الأسطى محمود.

فالكاتب يبرز هنا تآمر الذباب كمصدر من مصادر القلق والقرف شأنه في ذلك شأن الإنسان الوصولي الذي يصل إلى مطلبه بطرقه الخاصة غير الشريفة والتي يستجيب لها الكثير من الرؤساء.

فماذا حدث للأسطى محمود بعد ذلك؟ لقد أحس بعد عدة دقائق بذبابة لحوحة بين قميصه وجلده المصاب بالحساسية "فكاد يحكها ولكنه أحس بالقرف الشديد. فكان عليه أن يتحمل الوردية بطولها تحت رقابة عبد الونيس وطنين الذبابة اللحوحة التي تريد أن تقول له كما يقول عبد الونيس بعد حصوله على الوظيفة: "سأغيظك".

فنحن هنا أمام صورة من صور الظلم الوظيفي التي تلعب الوساطات والوصولية الدور الرئيسي فيها، والكاتب هنا يبرز هذه الأشياء بشكل حاد من خلال حادثة بسيطة ولكنه استطاع أن ينقل لنا من خلالها كل ما يريده دون أن يطيل خطابه.. لقد أبرز قوة الوساطات والوصوليين الذين استطاعوا أن يسرقوا من الأسطى محمود وظيفته رغم الشهادة الصادقة

المخلصة لصالح الأسطى محمود ورغم رضا زملائه وشهادتهم الجماعية بأحقيته للوظيفة، وعالم الحشرات هذا أو مضايقته للإنسان وتهديده المستمر له نجده الذي يبرزه أحمد الشيخ عند عبد البديع عبد الله في قصة "الدم والدود في الجزيرة" وقصة "الذبابة" فهو يبرز في هاتين القصتين الصراع بين الحشرات والإنسان وينتهي بهما كما انتهى أحمد الشيخ، بانتصار الحشرات، وسيأتي الحديث عنهما بالتفصيل عند الحديث عن عبد البديع عبد الله.

وإذا كان الأسطى محمود الرجل العاقل قد استسلم حتى لا يحدث فوضى في العمل تؤدي إلى تعطيل الإنتاج فإن الطبيب البيطري عبد الحق في قصة "ذيول التحدي" لم يستسلم لتحدي عبد التواب الإقطاعي الحاقد وأتباعه، لقد نظر عبد الحق إلى التحدي بأنف شامخ ورأس جامد لا يلين وعيون ترقب في هدوء وثقة، رغم عدم تكافؤ المعركة بينهما ولكن المسألة مسألة حياة أو موت إما أن يعيش شامخًا يحقق أمنيته في الحصول على بكالوريوس الطب البيطري.. ولذلك بصق في وجه عبد التواب عندما هدده إذا لم يعد "الشلته" ولم يتراجع عن موقفه أيضًا عندما كرر إسماعيل أحد ذيول عبد التواب تهديده له فصفعه صفعة محمومة متحفزة وتركهم وهو يهمس "إن العمر واحد والرب واحد"، وعندما انفرد عبد التواب وأتباعه بعبد الحق ليقضوا عليه لم يستسلم لحقد عبد التواب الأسود لأنه تذكر آماله وآمال أهل قريته المعقودة عليه ليخلصهم من الظلم "إذا فكرت في الاستسلام فسوف تنتهي يا عبد الحق.. ستكون غبيًّا إذا سمحت لمجموعة السكارى بالقضاء عليك.. وسوف يخيب أمل الرجال في القرية في واحد ممن علقوا عليه الآمال "ولذلك قبل التحدي واستجمع شجاعته وضرب عبد التواب بخنجره فقضى عليه، عندئذٍ هرب الأتباع بعد أن نهبوا ما بجيوب عبد التواب.. فروا مذعورين خوفًا من خنجر عبد الحق وبذلك استطاع عبد الحق أن ينقذ حياته من عبد التواب وأتباعه، واستطاع بعد ذلك أن يتنفس في جو صحي لا يلوثه أمثال عبد التواب والذين قتلوا يومًا ما أباه ظلمًا.

فإذا كان الكاتب في قصة "صيف الذباب" قد قدم نموذجًا للإنسان الطيب العاقل المقدر للظروف في العمل ولهذا آثر السلامة والهدوء فإنه يقدم في هذه القصة نموذجًا إيجابيًّا لنضال الإنسان ضد قوى الظلم الحاقدة، ولعل هذا راجع إلى تصور عبد الحق لما سيحدث لو هزم في مواجهته مع عبد التواب وتجسد هذا التفكير بسرعة في عمل حاسم أنهى الموقف كله بينه وبين عبد التواب.

ومن الشخصيات الإيجابية مثل عبد الحق أيضًا الممثل الموهوب في قصة "كتلة الصمت" الذي يعتز بكرامته ولا يرضى بامتهانها بالسير في ركاب أستاذ كبير من الأساتذة الكبار ليوصله إلى القمة كما فعل زميله الذي لا يملك من المواهب إلا الفهلوة والشعبطة

والسير في ركاب أحد الأساتذة الكبار. إنه يرفض الخضوع لنصيحة زميله الفهلوي "عليك أن تختار أستاذك.. تلبد تحت إبطه.. بعدها يتكفل الأستاذ بعمل كل شيء من أجلك "إنه ينظر إلى زميله الفهلوي نظرته إلى الكلب الذي رآه مفعوصًا "كلب ولا يسوى.. لكن المتسكعين من حوله رفعوا سعره " فالممثل الموهوب هنا إيجابي في صبره وصموده أمام الإغراءات الكثيرة التي تحيط به، إيجابي في رفضه السقوط اعتزازًا بكرامته وثقة في قدرته الفنية التي سيعترف بها الجماهير حينما يأخذ فرصته.. لأن الجماهير ترفض الابتذال في الفن الذي يقدمه أمثال زميله الفهلوي.

وهذه الشخصيات رغم أنها تعيش في دائرة الانحناء والخضوع إلا أنها تصارع لتخرج من هذه الدائرة.. تصارع لأنها تريد أن تشكل الحياة، بمفاهيم جديدة لتتساوى فرص الحياة أمام الجميع، والإرادة وجه من وجود الإيجابية؛ لأن توفر عنصر الإرادة يدفع إلى التفكير، والتفكير يدفع بالتالي إلى العمل، وهذا ما نلمسه في جميع الشخصيات، وهذا هو ما تعبر عنه كلمات الموظف المظلوم لرئيسه، وإذا كان هذا الموظف يطلب من زملائه أن يتحركوا ليحطموا التمثال ليحرروا أنفسهم فإن بطل قصة "دائرة الانحناء" يطلب قلبًا جديدًا غير قلبه المثقل بالهموم ويأمل في "أستاذ جراح جريء مغامر.. يستطيع أن يزرع في صدري مكان القلب المثقل بالهموم المرتبك قلبًا جديدًا لإنسان آخر شامخ عنيد.. مندفع ومحموم يستطيع أن يهمس في أذن البنت الحلوة بالكلمة".

فبطلها يبحث عن الانتماء.. يريد أن يعيش شامخًا كما كانت أمه، التي عاشت في القرية مرفوعة الرأس، أما هو فإنسان منحنٍ لا يدري كيف ومتى ولا لمن أحنى هامته لكنه كما يقول "انحنيت أمد ودب ظهري وتقوس، طاشت ذاكرتي واحتارت في حصر التفاصيل المنسية وشبه المنسية.. إنه إنسان يكبله الخوف وحرص أجوف حتى فقد العناد والجرأة.. لقد أصبح يعود إلى البيت مضغوطًا بعد أن تدافعته الأيدي والأرجل والأكتاف "وازداد الحرص في ذبح الكلمات الرعناء على طرف لساني.. بقيت خطوة لأكون جبانًا ممسوخًا محني الهامة أعمى يتخبط ما لم يتحسس وقع الأقدام.. وأدور.. وأدور في ذات الدائرة المغلقة الجدران".

فالقضية الأساسية التي تؤرق الكاتب هي القهر الذي يحني قامة الإنسان في القرن العشرين، إنه يصور مأساة الإنسان في عصر الحرية.. الإنسان المبقور الآمال.. الإنسان المذبوح الأمنيات على مقصلة المنافقين والوصوليين والذيول..

والكاتب هنا يعطي جوًا من الكآبة والحزن إلا أننا لا نملك إلا أن نتعاطف مع الشخصيات التي قدمها؛ لأننا نجد أنفسنا فيها.. إننا نواجه أنفسنا مواجهة صريحة، وهذا التعاطف ليس الدافع له الرثاء والبكاء، ولكن الدافع له الحب والاعتزاز لأنها ليست شخصيات

متخاذلة وضعيفة هاربة من الميدان.. الكاتب هنا يقدم شخصيات عنيدة.. معتزة بإنسانيتها.. تموت وهي شامخة.. إنها تصرخ ولكن صرخاتها إدانة للعصر.. إنها شاهد على عصر الحرية، فما العجوز الذي عاد إليه ابنه بعد غياب وتشرد في قصة "العجوز والصبي" إلا شاهد على عدم الخضوع وكلماته التي قالها لابنه "لكن خبرني هل مت جوعًا أو حزنًا.. أو أنك مت شموخًا وعنادًا.. ورغبة صلبة في عدم الخضوع" دليل على اعتزازه بإنسانيته.. فهذه الشخصيات جميعها صمتها ونوحها احتجاج وثورة وتمرد.. ويؤكد الكاتب هذا المعنى في قصة "همسات الرجل الضئيل" فالرجل الضئيل الذي نهشت لحمه الذئاب الآدمية الجائعة، ورغم ذلك يصنع هيكلاً من الحطب ليواصل حياته بإصرار ويؤكد وجوده مع استمرار انتشار الذئاب الناهشة للحوم البشرية الضعيفة.. إنه مصر على الحياة مع أنه يلمح باستمرار "بين أنيابها ذرات من العظام الممضغة وكنت أكتفي بالاطمئنان على أعواد الحطب التي ارتكز عليها.. وأعرف أن في الميدان الكبير واحدًا جديدًا تلتف حوله العيون المنطلقة وتدور من حوله مجموعة من الذئاب أولئك الذين أروغ من عيونهم الحاقدة التي يبدو لي أحيانًا أنها تتابعني في شماتة واستخفاف أو تحفز شره حقود".

ويبدو في هذه القصة تأثر الكاتب بقصة "العجوز والبحر" لأرنست همنجواي ولكن تبدو شخصية أحمد الشيخ واضحة فهو لم ينقل تأثره نقلاً أعمى..

وقصص المجموعة ترتكز على محور أساسي يبرز في كلمات الموظف المظلوم، ويربط القصص جميعها خيط واحد واضح، والكاتب في كل قصة يعطي بعدًا جديدًا لدائرة الامتحان التي يعيش فيها الإنسان ويزيد المضمون عمقًا ليوصل للقارئ في النهاية معنى دائرة الانحناء من خلال نماذج من واقع حياته.. يعايشها ويلمس مشاكلها، ولقد نجح الكاتب في توظيف إمكانياته الفنية من ناحية شكل القصة واستخداماته اللفظية والشكل، وإن كان تقليديًّا ولكنه استطاع أن يتخلص من السرد الإنشائي والنبرة العالية فنجده يعتمد على سوق الحديث وتعميقه في القصة، كما أنه لجأ إلى الرمز والمقابلة بين الشخصية وشيء آخر كالحشرات والحيوانات؛ فهو يقابل بين الذباب وإلحاحه ومضايقته للإنسان وبين الإنسان الانتهازي الذي يسرق فرصة زميله كما في قصة "صيف الذباب" ويقابل بين الكلب الميت والممثل الفهلوي كما في قصة "كتلة الصمت" فهو بهذا يقدم صورًا فنية تكثف المعنى الذي يريده وتغني عن الوصف والسرد الذي يضعف القصة، ولهذا نجح الكاتب في توصيل المعاني التي يريد أن يوصلها للقارئ، بهذا يكون الكاتب – كما يقول ريتشارد في كتابه النقد الأدبي – : "إن الكاتب يدعو القارئ إلى المشاركة الفعالة الإيجابية في خلق حياته على أساس سليم" ولقد عبر عن ذلك روب جرييه في كتابه نحو رواية جديدة فقال: "إن ما يطلبه المؤلف من القارئ ليس

استقبال عالم كامل ممتلئ مغلق على نفسه بل على العكس، إنه يسأل أن يساهم في عملية الخلق وأن يخترع بدوره العمل الذي يقرأ وأن يتعلم بهذه الطريقة أن يحقق حياته هو"..

ماذا يريد الكاتب أن يوصله للقارئ في هذه القصة؟

إنه يريد أن يوصل للقارئ صورًا مضيئة وغير مضيئة من حياته التي يعيشها من خلال الصورة العامة التي يرسمها في القصص مثيرًا إحساس القرف والضيق الذي يدفعه إلى التفكير والعمل لتحرير نفسه والتنفيس عن المكبوتات التي يختزنها عبر رحلة حياته.. إنه يدفع الإنسان إلى الحركة الدائمة الدائبة للبحث عن وسائل للتنفيس عن مشاعره.. ولكنه ليس تنفيسًا لتبديد الطاقة المتحررة الثائرة ولكنه تنفيس مثير منشط، وهذه وظيفة الفن كما عبر عنها هربرت ريد في حديثه عن الفن والإحساس العاطفي ومدى الاختلاف بينهما "فالإحساس العاطفي تنفيس عن المشاعر.. ولكنه أيضًا نوع من الارتياح وارتخاء الوجدان، والفن أيضًا تنفيس عن المشاعر ولكنه تنفيس منشط ومثير".

وفي هذه المجموعة نجد في صرخات شخصياتها المهزومة المقهورة تنفيسًا عما في أعماقنا من أحزان، ولكنه ليس تنفيسًا يبدد الطاقة كما قلنا، ولكنه تنفيس منشط للفكر ومثير للوجدان، ولا يملك الإنسان إلا أن يتخذ موقفًا لإنقاذ هذه الشخصيات كالأسطى محمود والدكتور عبد الحق والموظف لأنه إنقاذ لنفسه هو.

وإذا كان الكاتب قد لجأ إلى الواقعية في قصصه إلا أنه لم يتناولها بطريقة تسجيلية كما أنه لجأ إلى الرمزية كما في قصة "عنق الزجاجة" التي تصور الصراع الطبقي في المجتمع وانتصار الكادحين على النبلاء والإقطاعيين.

ومن الواضح في هذه القصص أن الكاتب استفاد مما عاشه في واقع حياته وجسده في قصصه تجسيدًا فنيًّا أعطى لها أبعادًا وأعماقًا جعلنا نحس الشخصيات.. نحس بحركتها وأنفاسها..

إن أحمد الشيخ في مجموعته هذه قد ألقى الضوء على مظاهر الفساد الذي ينخر في الإنسان فيهد كيانه ويقضي على آماله، ورغم ذلك فهو يقاوم ليحافظ على وجوده محطمًا دائرة الانحناء التي تطوي كل إنسان يضعف ويتخلى من المقاومة.

حكاية الطين الأخضر
صورة أخرى لصراع الإنسان

هذه المجموعة تقدم صورة أخرى لصراع الإنسان من أجل البقاء، فهو يصارع الحشرات ويصارع قوى الطبيعة ليتمكن من الحياة.. وعبد البديع عبد الله من الشبان الواعدين الذين اعتصرتهم هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وشغلتهم قضايا مجتمعهم فعبروا عنها بفكر معتدل يدفعهم إيمان بالإنسان الذي يعيش على هذه الأرض، ولذا نجد في أعمالهم القصصية تفاؤلاً، فهو يدعو إلى قيم الخير والحق التي يحتاج إليها الإنسان.. وهذا التفاؤل يرجع إلى ارتباطهم بمجتمعهم وفهمهم الأصيل لمكوناته الاجتماعية والنفسية والخلقية، وهذه العلاقة المتينة بين الفنان ومجتمعه هي التي تعطيه الأصالة، ولقد عبر هربرت ريد عن هذا بقوله: "لن ينكر أحد العلاقة العميقة القائمة بين الفنان والمجتمع؛ فالفنان يعتمد على المجتمع، وهو يحصل على نغمته وإيقاعه وقوته من المجتمع الذي هو عضو فيه".

ويشير أيضًا إلى ضرورة احتكاك الفنان بالمجتمع الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابه "الروائي والأرض" بقوله: "وإذا كان الفنان أكثر حساسية وتعرضًا للانفعال من الآخرين، فإن مصدر انفعالاته يتمثل في الاحتكاك المباشر بالإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه" ويؤكد هذا الاتصال بالمجتمع بالنسبة للفنانين الذين يقال عنهم إنهم يعزلون أنفسهم إراديًّا عن المجتمع فيقول: "هذه الفكرة مردود عليها بأن الفنان حتى وهو في عزلته يمارس علاقة جدلية من التأثر والتأثير مع واقعه عن طريق المخيلة.

والكاتب عبد البديع عبد الله نلمس في إنتاجه اتصاله بمجتمعه، مع بحثه الدائم عن الجديد في الشكل والمضمون وفي مجموعته "حكاية الطين الأخضر" يقدم محاولات تجديدية في قصة "المربع المضيء داخل علبة الكبريت" ولكنها محاولات ليست مغرقة في الغرابة والغموض بحيث يصعب فهمها، كما تخلو من الضياع والتمزق اللذين تتسم به بعض المجموعات القصصية في الآونة الأخيرة.

وهذه المجموعة تعبر عن صراعات مختلفة في الكون.. صراع الحشرات الضعيفة والحشرات القوية المهددة لحياتها.. صراعات بين الإنسان والحشرات كما في قصة "الدم والدود في الجزيرة" وتنتهي القصتان بانتصار الحشرات على الإنسان، ويمثل ذلك تهديدًا للإنسان إذا لم يراجع موقفه ويعيد النظر في قيمه وأخلاقه وأفكاره.. إذا لم يخرج من دائرة الذاتية ويكون أكثر عطاء لأخيه الإنسان، ويؤكد الكاتب هذا في قصة "النملة" التي تصارع من

أجل الحصول على القمحة لتضمن الحياة لأولادها ولا تكتفي بضمان الطعام فقط، ولكن تصر على تعليمها حكمة الحياة "ازرعوا الخير وابحثوا عنه وارووه وابعدوا عن الشر وأهملوه.. يموت" وليس معنى هذا الاستسلام بل النضال ضد القوى التي تهدد الحياة.. فالنمل يجمع صفوفه ليحارب السوس.. وينتصر النمل ولكنه لا يفرح بهذا الانتصار، ونراه يدعو إلى الحرص واليقظة حتى لا يعاود السوس الكَرَّةَ مرة أخرى لأن السوس "تحت الأنقاض.. بين الركام.. يتربص ليعود".

والكاتب في هذه القصة يدعو إلى الخير وإلى التعاون حتى يكون للحياة طعمها.. فهو يرى أنه لا قيمة للحياة إذا أهدرت فيها القيم الإنسانية.. ما قيمة هذه الحياة التي يتربص فيها الإنسان بأخيه الإنسان.. الكاتب يرى أنه لا بد أن يعيش الإنسان من أجل الآخرين، ويؤكد هذا المعنى في "سمكة في نهر" فالسمكة تحاول إنقاذ الموج المصطدم بالجدار باستمرار.. وتصر السمكة على أن تضع للأمواج عيونًا لترى مصيرها نتيجة اصطدامها بالجدار الصخري.. نرى الإصرار الشديد على إنقاذ الموج مع أن في هذا نهايتها.

والقصة صورة شعرية ترتفع بالوجدان البشري إلى حالات من الانفعال والتأثر تحدثه الجمل الشعرية المتواترة في إيقاعات متلاحقة تعبر عن الحركة الدائبة للأمواج ولهفة السمكة وشوقها لإنقاذ الموج من الضياع وأمنيتها أن تتبصر مصير أخواتها:

الموجة تضحك من السمكة

السمكة تجري إلى الموجة.. تمسك بها.

الموجة تضربها

السمكة تبتعد

واهتمام الكاتب بالأسلوب الشعري أوقعه في التكرار غير المقبول في القصة، كما في صفحة ٣٦ "القارب يسبح فوق الماء ودموع السمكة.. القارب يضرب بمجدافيه الماء ودموع السمكة" وأيضًا في صفحة ٣٧ "الأمواج الميتة تحت الماء.. الأمواج الميتة.. يكفنها الماء.. الأمواج الميتة.. غاصت في الماء"، ونجد هذا التكرار أيضًا في قصة "بنت":

وتأخذنّ من ماء الترعة.. وتغسل يديها
وتأخذ من ماء الترعة.. وتغسل وجهها
وتأخذ من ماء الترعة.. وتمسح رقبتها

والكاتب في القصص الثلاث "الدود والدم في الجزيرة"، "النملة"، "سمكة في نهر" يقابل بين عالمين مختلفين.. عالم الإنسان وعالم الحشرات، ويهدف من هذا التقارب إلى إبراز

التناقض بين العالمين.. عالم الإنسان المتطاحن، وعالم الحشرات المتعاون والمتفاني من أجل تحقيق الخير، وانطلاقًا من هذا المفهوم يقدم الكاتب قصة "وصية فارس قديم إلى أبناء الجيل الجديد" ففي هذه القصة يقيم حوارًا بين الأجداد والأحفاد، وتتلخص الوصية في التسلح بالإيمان والتمسك بتراثنا، وما ضعفنا وانهيارنا إلا "بعد ما تحول الإسلام إلى أثر بعد عين، وقديمًا ضرب الصليبيون الحصار حول بيت المقدس.. وحولوا مدينة السلام إلى ساحة حرب؛ لأن أبناء ذلك العصر فقدوا قوة الإيمان، وحرموا رؤية البصيرة لسوء الطالع ليتداركوا المكتوب مثلكم تمامًا" ويؤكد الأجداد أنه لم تعد للإسلام قوته وعزته إلا عندما رجع أبناؤه إليه وعملوا من أجل إعلاء كلمته وظلت قوة هذا البنيان المتين حتى "جاء الصليبيون الجدد من إنجلترا وفرنسا واستغلوا ضعف الديار وراحوا يمزقون جسدها العظيم ويقيمون على أطلاله الدويلات.. من يومها يا أحفادي والدنيا غير الدنيا والعالم ينهار، ولا خلاص إلا بالعودة إلى أحبال الإيمان، والتمسك بها.. وإعادة بنائها"..

والكاتب في هذه القصة يعبر عن أزمة الإنسان في هذا العصر ويبين أسباب الضياع والقهر والانهزام.. ويؤكد أن الخلاص في التمسك بالدين؛ لأنه هو مصدر القوة للإنسان "يجب أن تعودوا إلى درب الحياة الصحيحة، وتتسلحوا بسلاح القوة والإيمان فهو لا غرو أمضى سلاح" ويؤكد الكاتب هذه الأفكار في قصة "الثوب الأخضر" وهي قصة رمزية تدور حول فتاة ترفض أن تلبس الثوب الأخضر الذي ورثته عن جدتها" لماذا قدر عليّ أن أرتدي ثوبهن الأخضر القديم.. لن أرتديه.. أسمع يا ناصحي.. لن أرتدي الثوب الأخضر، سئمت كل ما هو أخضر حتى اللونين الأزرق والأصفر.. تعرف لماذا؟ لأن اجتماعهما يولد الأخضر.. سأرتدي ثوب شبابي الجديد.. هدية جاري الجديد.. الفتى الحلو الحديث.. أرتدي له الثوب الرمادي الجديد، فلونه جميل.. ولم أر الرمادي جميلاً كالآن، فلم أكن أر إلا ثوبكم القديم.. ثوب أمي وجدتي إلى أولى الجدات.. خذه لك، كفنها به، فلست أريده"..

وفي لحظة رفض الفتاة للثوب الأخضر وإلقائه على الأرض، يغطي الثوب الأرض كلها، فتخضر وتورق وتحيا بعد موتها.. فتستغيث الفتاة، فيظهر العجوز المنقذ للفتاة من أزماتها التي تقابلها فيأخذ بيدها ويسير بها في طريق الخلاص والإيمان.. وهو طريق الأمان الصادق بالدين والمحافظة على تراث الأجداد الأصيل.

والقصة رغم جدية فكرتها إلا أنها عولجت معالجة بسيطة ساذجة لم يحاول الكاتب أن يعمق الفكرة من خلال الرمز الذي جاء بسيطًا أيضًا..

ومحاولات الكاتب المستمرة في البحث عن مضامين جديدة وأشكال جديدة للقصة القصيرة تتمثل في قصة "المربع المضيء داخل علبة الكبريت"، ففي هذه القصة اتجاه إلى

النزعة الشيئية، فالذات تتحول إلى موضوع حيث يمتص الذات ويصبح كل شيء موضوعًا، فالعالم مجموعة من الأشياء "المثلث الأخضر.. ذو الأضلاع الثلاثة.. العائم فوق النهر.. المعتمة سماؤه ذات المكعبات الرابضة داخل الأقلام وعلب السجائر.. وعلب الكبريت.. يفلت منها مربع صغير داخل علبة كبريت.. يسبح في موجات متلاحقة من الأضواء وأصوات العزف المنفرد" الناس حبيسة في علبة الكبريت.. حبيسة في مكعبات ومربعات.. تتحرك الرءوس داخل علبة الكبريت "رأس صاحبة المربع المضيء.. تطل من علبة الكبريت وتمد أنفها إلى الأمام.. وعلى اليمين وعلى الشمال.. وتمد بوزها.. تشمئز.. وتخرج من صدرها زجاجة عطر.. وتتعطر وبسرعة تنقش ابتسامة على وجهها.. وتختفي داخل علبة الكبريت"..

وهذه النظرة الشيئية للعالم نجدها عند الفنان التشكيلي فرنان ليجيه "الذي نظر إلى العالم على أنه أسطواني الشكل وإلى الشكل الأسطواني على أنه أداة تشكيل العالم بما فيه من أشياء وأشخاص"..

وفي هذه القصة استفاد الكاتب من موجات اللامعقول من ناحية التكنيك – كما يقول الأستاذ جلال العشري في مقدمته لهذه المجموعة – حيث "تنتفي العلاقات المألوفة بين الأشياء فيعيش إنسان بيكيت داخل صندوق قمامة، ويتحول إنسان يونسكو إلى خرتيت"..

ومن المحاولات التجديدية من أجل البحث عن أشكال تعبيرية جديدة قصة "الخروج من القشرة" وهي باللغة العامية، وتدور حول موظف عادي يثور على نفسه ويرفض أن يكون ماكينة يتلقى الأوامر والتوجيهات وينفذها دون مناقشة، "يرفض حياته الروتينية التي أماتت مشاعره" يرفض أن يكون بلياتشو.. يريد أن يكون إنسانًا يخرج من دائرة الخوف ليشعر بحياته ويصر على التغيير "ما فيش كلام الخوف والموت.. أنا من دلوقت عبد السميع الإنسان.. مش عبد السميع العبد.. خلاص راحت أيام العبودية" ويرجع عبد السميع أفندي إلى بيته حاملاً بعض الكتب عن جيفارا ونكروما وعلى وجهه ملامح الإصرار على رفض العبودية والروتينية القاتلة. وهذه الأفكار يعرضها الكاتب في خلال المونولوج، وبهذا أعطى لنفسه التبرير الفني في استعمال العامية في القصة كلها..

واستخدام العامية يثير قضية ثنائية التعبير بين اللغة الفصحى والعامية، وكان من الممكن أن يجنبنا الكاتب هذه الثنائية التي توقع في خلط وبلبلة، ولا يمنع هذا أن نقول: إن الكاتب استخدم اللغة العامية بحرص ودقة بشكل جعلنا لا نشعر بالفرق بين الأسلوب العامي والأسلوب الفصيح.

ويمكن أن نقول إن هذه المجموعة في معظمها يجمعها وحدة فكرية تدور حول قضايا الإنسان المعاصر المتمثلة في صراعه من أجل الحياة.. ولذلك تبدو قصة "جدع من الحي

الشعبي" وقصة "خناقة في الحي الشعبي" نغمة شاذة في المجموعة لا تستقيم مع الخط الفكري لبقية القصص، وقصص هذه المجموعة ما عدا قصة "المربع المضيء داخل علبه الكبريت" التي تعتبر محاولة تجديدية في التكنيك والمضمون – كما ذكرنا سابقًا – لا تخرج من رداء الشكل التقليدي، وتتمثل في قصة "وصية فارس قديم إلى أبناء الجيل الجديد" إلا أن الكاتب تخلص من الالتزام المتوارث في القصة التقليدية وحصر المقدمة والعقدة والحل، ونراه يقدم صورًا يحكمها لخطة صراع بين المتناقضات في هذا الكون، كما أنه حرص على نقاء لغته وعلى وجود تناغم فيما بينها، فارتفع أسلوبه إلى الأسلوب الشعري مما ساعد على تحريك الوجدان والاتحاد مع الأشياء والأشكال التي قدمها الكاتب المتحرق دائمًا إلى الواقع الأخضر.. رمز السلام والمحبة..

غزة من الخلف والقضية الاجتماعية

تعيش فلسطين في وجدان كل عربي، فهي ماضيه الحزين وحاضره المتصارع من أجل مستقبل آمن مستقر.. ولقد ظلت على مدى عشرين عامًا نبعًا يستمد منه الشعراء والقصاصون وكتاب المسرح مادة لأعمالهم.. وإذا نظرنا في الأعمال التي تناولت قضية فلسطين نجد أن معظمهما يتسم بالمباشرة والخطابة والحزن والشكوى والأنين.. ولكن روح الشكوى والأنين هذه خفتت بعد عام ١٩٦٧ وحل محلها الأمل والدعوة إلى النضال من أجل تحرير الأرض.

ولم تقتصر الكتابة عن فلسطين على الأدباء والكتاب العرب.. ولكن شارك كذلك كتاب أجانب مثل الكاتبة الأمريكية فاداهارت نيكي في قصتها "الأمل المشتعل" و"نهر الدموع" والكاتبة الإنجليزية إيثيل مانين في قصتها "بئر سبع".

وهنا نتساءل.. ما هو المطلوب من الأدب لتدعيم قضية فلسطين.. خاصة وأنها تفرض نفسها على الصعيد العالمي؟ أعتقد أن المطلوب من الأدب الابتعاد عن الثورة العاطفية التي تدفع إلى الخطابة والمباشرة، لأنهما غير مقنعين، ويكون تأثيرهما وقتيًّا ينتهي بانتهاء قراءة العمل الأدبي، كما أنها تضعف العمل الأدبي فنيًّا.. بالطبع أقول ذلك وأنا أتمثل كثيرًا من الأعمال القصصية التي تناولت قضية فلسطين ولا نلمس في معظمها الحرارة والصدق؛ لأن كاتبها كتبها بعد رحلة سياحية زار فيها قطاع غزة ومعسكرات اللاجئين.. ويمكن أن أقول إن الكتاب في ذلك كله يخاطبون وجدان القارئ فقط، وهذا لا يكفي لأن المطلوب أن نخاطب العقل والوجدان معًا خاصة أن قضيتنا الآن بعد تحرك الفدائيين يفرضون الحق الفلسطيني على الصعيد العالمي.. كما يجب أن نضع في اعتبارنا القارئ الأوروبي البعيد كل البعد عن مكان المأساة والذي تتنازعه ثقافات أخرى تخدم أفكار العدو.

وإذا نظرنا بعد ذلك في المجموعة القصصية "غزة من الخلف" للأستاذ فوزي العمري وهي تحتوي على ست قصص قصيرة تعرض صورًا من المآسي التي يعانيها اللاجئون.. والقصص رغم بساطة شكلها وأسلوبها السردي المباشر فإنها تعرض جانبًا جديدًا في القضية الفلسطينية وهو الجانب الاجتماعي؛ فهي تناقش الفوارق الطبقية في غزة بصراحة، فالمجتمع الغزوي ينقسم إلى طبقتين، طبقة ثرية وهي أصحاب البيارات ويمثلون الرأسمالية بأفكارها المتعفنة وأسلوبها الانتهازي المستغل.. وطبقة أخرى مسحوقة لا تملك شيئًا، ويتمثل هذا في قصة (غزة من الخلف) فبطلها "أحمد" شاب قادم من القاهرة وفي رأسه أفكار اشتراكية جعلته يرفض ما رآه في غزة من فوارق طبقية، وشعور الكاتب بهذا ولد عنده إحساسًا بالضيق من

كل ما يحيط به، ضاق بوالده الثري زعيم البلدة الانتهازي.. ضاق بحبيبته التي لا توافقه على أفكاره الإصلاحية الحانية على الكادحين.. فهو يرى أن الحب الحقيقي ليس الحب الذاتي المنغلق على اثنين.. ولكن الحب عنده هو الحب المنفتح على المجتمع عامة، والإحساس بآمال الجماهير، وهذا الحب في نظره هو الذي يعطي لحبه معنى.. تختلف معه حبيبته الرأسمالية فيرفضها وينفصل عنها.. وأخيرًا ينتهي به المطاف إلى الانضمام إلى البسطاء الكادحين الذين لا يعرفون الغش والخداع.. ونتبين هذا في الحوار التالي بينه وبين حبيبته:

- انظري إلى هذا الفتى المسكين.
- عيناي لا تريان سواك.
- ليس الحب أن ينظر أحدنا في عيني الآخر.
- الحب أن ننظر في عيون الآخرين.. إن وجود هذا الفتى الذي يذاكر دروسه بين جانبي عربة لدليل على دناءتنا.

قالت بحدة:

- لقد خلقه الله ليكون هكذا.. الله يرى من المناسب أن يكون هذا فقيرًا معدمًا.
- لا.. لم يخلقه الله ليكون هكذا معدمًا.. إن في البلد زيفًا وخطأ وتشويها.
- دعني من كل هذا.. لا أريد أن أشغل نفسي بآلام الآخرين.
- ما أجملك وما أعظم حبي لو أنك فقط لا تخافين.
- وما أقل خوفي لو أنك فقط تحبني.
- أحبكِ.. ولكني مع الحق.
- وأين الحق؟
- مع الذين يعيشون في الخلف.. مع الذي مر من أمامنا الآن.. لا تبكي.. كوني معي وسأضع على وجهك قبلات بعدد أوراق شجر البرتقال في يافا.
- لماذا تتعب نفسك وتتعبني معك؟
- إن البلد في وضع مقلوب.
- وما شأنكَ به؟
- وهو بلدي أيضًا، ولا أهتم إن كان في وضع مقلوب أو غير مقلوب؟
- لا مسافة بيننا سوى هذه المسافة.. لماذا لا تحاولين قطعها؟
- الحب يلغي المسافات.

- الحب لا يترعرع في جو فاسد.. علينا أولاً أن نغسل البلد.
- ما لنا نحن والبلد.. دعنا نعيش الحياة.
- لا يمكن أن نعيش الحياة إلا حينما يربطنا بغيرنا هدف مشترك خارج ذواتنا.

فالكاتب هنا يقدم صورة للشاب الفلسطيني الجديد.. فهو الشاب الثوري الرافض لوالده الذي تتمثل فيه الرأسمالية.. الرافض لحبيبته المختلفة معه في المبادئ.. الرافض لمجتمعه المليء بالفوارق الطبقية.. إنه شاب يبحث عن روح الحياة الجديدة حتى تتحقق لجماهير الشعب حياة كريمة.. ولا تقف أفكار الكاتب عند هذا الحوار فقط بين أحمد وحبيبته ولكنه يواصل عرض أفكاره من خلال حوار آخر بين اثنين سائرين في الطريق يستمع لهما أحمد وهما يهمسان:

- أريد أن أفتح عيني وأغمضهما فأرى ما يطبق في وادي النيل يطبق هنا.
- تعني الاشتراكية؟
- حتى نعرف تكافؤ الفرص وشرف العمل..
- حتى لا تتلوى بنا طرق الوصول.. حتى نجد الخير.. حتى لا نعرف الذل.
- يخيل إلي أن الذل يا صديقي حق طبيعي للحياة في هذا البلد..
- ولماذا نرضى بالذل.. أتدري كم دخل البيارات الحمضيات..
- طبعًا لا أدري.
- أتدري كم من الجيوب يدخلها هذا الدخل الضخم..
- خمسة أو ستة.
- خمسة أو ستة تدخل جيوبهم مئات الألوف كل سنة، ثم نشتم الناس إذا لم يتبرعوا لفلسطين، لماذا لا يتبرع لفلسطين أهلها ؟
- إنهم لا يريدون.
- إذن نسحقهم.

في هذا الحوار نلمس حدة الكاتب وتحمسه للجانب الاجتماعي، هذا التحمس الذي جعل بطله يترك هؤلاء الذين يعيشون في الأمام ليعيش مع الذين يعيشون في الخلف منتظرًا اليوم الذي تتحطم فيه الحدود التي صنعها الذين يعيشون في الأمام.

وتحرك البطل هنا بالنسبة لقضية فلسطين، الدافع له الرغبة في الإصلاح الاجتماعي.. القضاء على الفوارق الطبقية واستغلال الرأسمالية لجماهير الشعب الكادحة.. وكنت أعتقد أن

يتحرك البطل من أجل القضية الأساسية وهي تحرير الأرض أولاً من اليهود.. وعودة اللاجئين إلى وطنهم، ثم يبدأ بعد ذلك التفكير في الإصلاح الاجتماعي.. وأعتقد أيضًا أن تحريك الجماهير يكون أكثر فاعلية إذا لمسنا عندهم الوجدان الوطني، وحركنا غيرتهم على أرضهم المحتلة ودينهم الذي يريد اليهود القضاء عليه.

ويواصل الكاتب عرض أفكاره الثورية الاجتماعية في قصة (بائع البطيخ) وفيها يبلور سخط بطل القصة ويدعى "أحمد" أيضًا على نظم التعليم التي حرمته من أن يتعلم؛ فحرمته من وظيفة في وكالة الغوث وحرمته أيضًا من الزواج بفاطمة التي يرفض والدها تزويجها له لأنه لا يعمل عملاً دائمًا يضمن الاستقرار لابنته فاطمة.. فيسائل نفسه:

- لماذا لم يتعلم؟.. هل لأن التعليم بالمال؟..

ولماذا يكون التعليم بالمال؟.. لماذا لا يكون التعليم بالمجان حتى تتهيأ الفرص أمام الجميع؟".

وأعتقد أن هذا الشعار الذي يردده بطل القصة وهو أن التعليم بالمال غير صحيح.. فالتعليم كما أعلم في غزة نوعان.. الأول: تشرف عليه وكالة غوث اللاجئين، وهذا التعليم بالمجان. والثاني: تشرف عليه مديرية التعليم والثقافة، وهو يخضع لقانون وزارة التربية والتعليم المصرية.. وإذن فالتعليم لا يمثل مشكلة في غزة، ولكن نلمس أن تحمس الكاتب دفعه إلى استخدام الشعارات التي تعبر عن أفكار يؤمن بها، فأنطق بها شخصياته.. وهذا ما دفعه أيضًا إلى المباشرة في معالجة القضية.

ولا يقف تحمس الكاتب للإصلاح الاجتماعي عند حدود هاتين القصتين اللتين يعرض فيهما أفكاره بصراحة ومباشرة، ولكن تلح عليه فكرة الإصلاح الاجتماعي هذه باستمرار فيشير إليها في قصة" (بطاقة تموين) وهي تدور حول امرأة يموت طفلها وتحمله بين يديها إلى المقابر لتدفنه وفي الطريق تمر بها سيارة طويلة بيضاء يقودها شخص لا يظهر منه سوى وجهه المتورد المنفوح وشاربه الأبيض وطربوشه الأحمر، وهو هنا يريد أن يعري الإنسان الرأسمالي ويبين ما فيها من خسة وعدم شعور بآلام الآخرين.. لأنه لم يقف ليساعد المرأة في محنتها.. وتصل المرأة إلى المقابر.. يرفض الحارس أن يدفن الطفل لأنها لم تحضر شهادة الوفاة، وترجوه المرأة مرات ومرات ويصر الحارس على رفضه.. وأخيرًا تموت الأم.. فيقوم صديقه بحفر مقبرة للأم وابنها.. وعلى وجهه علامات احتقار للحارس الذي كان يحدثه عن مروءته وإنسانيته مع أهل بلده قبل وصول هذه المرأة.. وكيف أنه لا يطلب تصريح الدفن حتى لا تنقطع معونة وكالة الغوث.

فالكاتب هنا يضع أصبعه على نقطة مهمة، وهي عدم إحساس الإنسان بأخيه الإنسان الذي يعيش مثله في ظروف واحدة.. كما يكشف عن تناقض النفس الإنسانية وضعفها.

والكاتب في قصصه متفائل بالمستقبل.. المستقبل الذي يصنعه السلاح؛ ولذا نجد جميع شخصياته ينتهي بها المطاف إلى الكفاح بالانضمام إلى الفدائيين، ويتضح هذا في قصة (حبيبة بلدي) و(بائع البطيخ) و(١٥ آيار).. والقصة الأخيرة (١٥ آيار) تدور حول فلسطيني مقيم في الكويت.. يحبس نفسه كل يوم ١٥ آيار في حجرته وحيدًا.. ويلاحظه صديق فلسطيني آخر مقيم معه فيقتحم الباب عليه بعنف مندفعًا بجسمه فيكسره.. يحدث هذا كله، ولا يتحرك الصديق المستغرق في البكاء ولا يشعر بشيء مما حدث أبدًا إلا بعدما جذبه صديقه من يده فيفيق كمن وخزته بدبوس.

وأعتقد أن في هذا الموقف الأخير مبالغة غير مقبولة فنيًّا وكان الممكن التخلص منه.. إذ ليس من المعقول أن يقتحم باب بعنف ولا يتحرك صديقنا المستغرق في بكائه.

وتنتهي القصة بعود الفلسطيني إلى فلسطين وينضم إلى الفدائيين بعدما علم أن زوجته وطفله قد ماتا في هجوم إسرائيل.

وأخيرًا، أود أن أقول إنه رغم بساطة الشكل ووجود السرد الحكائي، ورغم وجود المباشرة نتيجة حماس الكاتب لبعض الآراء الاجتماعية وعرضها في أسلوب شعاري ورغبته في توصيلها إلى القراء فإننا نلمس في هذه القصص لمسات فنية تتضح فيها موهبة الكاتب، وتتضح هذه اللمسات في ذكر التفاصيل الدقيقة وحرصه على متابعتها كما في صفحة ٢٨ من قصة (بائع البطيخ).

كما أنه تخلص من الأسلوب الوصفي الهادئ أحيانًا واستخدم الجمل المتواترة المتلاحقة متخلصًا من حروف العطف تبعًا للحالة النفسية للشخصية وللموقف المتوتر.

كما أن كاتبنا يعكس هموم شخصياته وأفراحهم على الطبيعة؛ فهي حزينة لحزنهم وسعيدة لسعادتهم كما في قصة "بطاقة تموين" ص ٦، وأود أن أذكر أنه كاتب صادق مع نفسه ومع قضيته.

الركض تحت الشمس والحرب

وظيفة الفن أن يثير في الإنسان إحساساته ومشاعره؛ الأمر الذي يدفعه إلى التفكير في وسيلة للخلاص من أزمته، ويمكن أن يتحقق ذلك دون أن يلجأ الكاتب إلى المعالجة التي تهدد مشاعر المتلقي وتؤذيها، كما نجد مثلاً عند أحمد الشيخ في مجموعته "دائـرة الانحنـاء" فقـد استطاع أن يثير فينا شعور الرفض للتبعية والانحناء للآخرين من الشخصيات التي تناولهـا، ونجد ذلك أيضًا عند زهير الشايب في "المطاردون" وعند عبد البديع عبد الله في "حكاية الطين الأخضر" لقد استطاع هؤلاء الكتاب أن يثيروا في المتلقي مختلف الإحساسات دون إغراب في العمل الفني ودون صدمة بمواقف غريبة أو بمواقف مأسـاوية، وإذا نظرنـا فـي مجموعـة "الركض تحت الشمس" لكاتب السويس الشاب محمد الراوي نجد أننا نعيش في عالم غريـب حقًّا.. عالم شخصياته نفوسها خربة مثل مدينتها التي خربتها الحرب.. فهذه الشخصيات تعيش مع الموت وحيدة متبلدة الإحساس تندفع إلى هاوية الانحطاط والشذوذ؛ فتثـار فيهـا الرغبـة الشرهة عندما ترى أبسط الأشياء إثارة حتى ولو كان هذا ساق امرأة تقرر بترها كما في قصة "الأبيض والأصفر"؛ فالزوج بدلاً من أن تستيقظ فيه مشاعر الخوف على زوجته التي سـتترك المستشفى بعد أن تقرر إخلائها للجنود الجرحى نجد الزوج تستيقظ فيه شهوته ويتمرغ علـى الساق المصابة، وهذا أمر غريب حقًّا، والكاتب يهدف من تقديم هذه الشخصيات في هذا الجو الكئيب المرير إعطاء صورة لآثار الحرب وإثارة إحساس الكراهية ضد الحرب، ولقد وفـق الكاتب فعلاً، خاصة في قصة "هجرة على الداخل" و"مرثية حب" و"الرجل والفئران" في هـذه القصص الثلاث استخدم الكاتب فيها مادته من الأحداث اليومية استخدامًا طبيعيًّا لم نشعر فيها بأي تدخل من الكاتب، لقد أعطانا صورة واقعية وبسيطة لما تحدثه الحرب في الإنسان، ففـي القصة الأولى لم يستطع الرجل أن يمارس الحب مع حبيبته لأن صفارة الإنذار تفاجئ المدينة بين لحظة وأخرى فتشل التفكير وتقضي على كل متعة، وفي القصة الثانية تصر الخطيبة على رؤية السويس مدينة خطيبها ويصحبها الخطيب إلى المدينة فترى مدينة خربة يخـيم عليهـا الصمت لا يسكنها إلا الحشرات.. كل معالم المدينة ضاعت وضاع أيضًا حبهما وسـط هـذا الخراب. وفي القصة الثالثة يهجر الإنسان المدينة لينجو بنفسه من الموت، يهجرها إلى المقابر بين الفئران المتوحشة التي تتصارع باستمرار مع دجاجاته.. لقد اضطر إنسان هذه المدينة إلى العيش مع الأموات والظلام والفئران بعيدًا عن القنابل، وهذا التصرف طبيعي جدًّا في مدينـة تتعرض باستمرار للهجوم، ولكن في القصص الأخرى نجد مبالغة في تصوير تمزق الإنسان؛ وهذا نتيجة تدخل الكاتب كما في قصة الركض تحت الشمس، حيث يرى الإنسان فيها لا تدفعه رؤية الموت إلى الاتعاظ واحترام اللحظة الحزينة التي تعيشها زوجة تبحث عن زوجها فـي

المشرحة ولكن نجده يشتهيها وينظر في شبق إلى كل جزء في جسدها، وفي قصة "السقوط الأخير" التي تصور اغتصاب رجل وامرأة لأحد زائري القبور، وفي قصة "الأبيض والأصفر" التي سبق الإشارة ؛ فالزوج يثيره بياض ساق زوجته والعرق الأزرق الذي ينفر نتيجة انفصال الزوجة.. في هذه القصص تلمس تدخل الكاتب ومحاولته تطويع القصة للفكرة المسيطرة عليه، وهي أنه في أوقات الحروب يحدث التمزق والضياع. ولكن هل تتحلل النفوس وتصل إلى درجة من اللاإنسانية تجعلها تنسى اللحظات الإنسانية التي ترتفع بها إلى الآدمية؟ بالطبع غير صحيح، خاصة إذا كانت حربًا ليست طويلة مثل حروبنا، كما أن هذا الانحلال الذي يصوره محمد الراوي لا يحدث بسرعة وفق رؤية الكاتب. إنه يقدم صورة قائمة وشخصيات سلبية بائسة.. لا عمل لها إلا إشباع نزعات الأنانية.. شخصيات طريقها إلى السقوط سهل كأن المجتمع كله وصل إلى هذه الصورة من السقوط.. لقد أغفل تمامًا الصور الإيجابية المتماسكة الصامدة التي حققت النصر في ٦ أكتوبر.

ليست وظيفة الفن أن يصدم المشاعر الإنسانية بصور مبالغ فيها ولكن وظيفته المحافظة على هذه المشاعر والارتقاء بها من أجل بناء الإنسان وبناء المجتمع ويمكن القول أن محمد الراوي كاتب يمتلك أدواته الفنية ويستخدمها استخدامًا موفقًا كما أن لديه القدرة على الملاحظة الدقيقة والتقاط أدق الأشياء لتكوين الصورة كما في قصة "الأبيض والأصفر" فقد وصف ساق الزوجة وصفًا دقيقًا مستخدمًا الألفاظ الموحية والمثيرة للرغبة حتى أن اللحظة الحزينة التي تدعو إلى تصرف إنساني تحولت إلى موقف مثير بين رجل وامرأة.. لقد استخدم كل عوامل التأثير في المتلقي من رسم دقيق للموقف واستخدم للجمل القصيرة المتواترة وفقًا للحالة النفسية للشخصية، إن الراوي كاتب فنان لديه طاقات وقدرات تبشر في عالم القصة.

في أسلوب شاعر وقدرة قصاص ساق محمد عبد الحليم عبد الله قصة "الجنة العذراء" محكمة البناء، متتابعة الأحداث بشكل يربط القارئ بها عندما تقع عيناه على الأسطر الأولى، ويحس أن يد الكاتب تقوده بهدوء وحذر وتنتقل به من الريف حيناً إلى القاهرة حيناً آخر بمهارة دون ملل يحسه القارئ في أثناء تجواله في شعاب القصة وأروقتها.

وفي هذه القصة..

يصحو أهل القرية على صراخ يهتك ستر صمت منتصف الليل المخيم على القرية ويشدهم الصراخ إلى بيت بهية.. ويرون رجلاً في هذه الساعة من الليل وامرأة تقيم بمفردها مع ابنها.. ويفيقون من دهشتهم على سباب "حمودة" وثورته المتدفقة وهو يشق طريقه وسط الجمع المحتشد ويعاقب الاثنين ضربًا، الجمع يفكر.. الرجل المتهم من أعوان حمودة.. وتحدثهم نفوسهم في صمت بأن الأمر تمثيلية.. ألفها "حمودة" ليشوه سمعة امرأة أبيه ليتخلص منها وابنها.. والسبب معروف.. الأرض..

وينفض الجمع وتخلو الدار.. وتبقى بهية ودموعها وابنها.. ابن الثانية عشرة.. تنتظر الصباح لترى الحكم.. ويأتي الصباح.. ويزحف النهار.

ويطرق بابها الحاج محمود.. الرسول المبعوث من عند زوجها "ماضي" ويخبرها بوجوب الرحيل من القرية.

وتسافر بهية وابنها إلى القاهرة حيث يقيم أخوها.

ونترك القرية الآن لننتقل إلى القاهرة وراء "رضا" وأمه حيث يقع على الابن العبء في هذا الجزء من القصة وينتهي دور الأم بعد أن قامت بدورها في المأساة..

في القاهرة يحس "رضا" بالعطف الأبوي الذي افتقده في والده لما لاقاه من طيب معاملة وحسن رعاية من خاله.. ذلك الرجل الذي يعيش في أحضان التهريب أسير الخوف.. الخوف من البوليس.. والخوف من اعتداء خصم عليه.. ولذلك كان يحول هذا القلق والضياع إلى استقرار في حياة أخته وابنها.. وقرر أن يذهب "رضا" إلى المدرسة.

ويذهب إلى المدرسة.. وما إن تصفو الأيام، حتى يقبض على خاله ويسجن، وتمر أيام عجاف، ويعمل "رضا" في مطبعة...

ويعلم أن أخاه حمودة يتزوج.. فيذهب إلى القرية مع صديقه حسن ليحضر حفل الزفاف، ويعود دون أن يعرفه أحد.. وتضطره ظروف المعيشة إلى الانتقال إلى مسكن جديد عبارة عن غرفة فوق سطوح إحدى العمارات الواقعة في ميدان فم الخليج.. وذات يوم يفاجأ "رضا" بصديقه حسن يقف على عتبة مسكنه الجديد.. وكان بينهما حديث عن القرية وحمودة، وتمتد ذراع الحرب العالمية الثانية من الإسكندرية إلى القاهرة.. وتفاجئ الغارات أهل القاهرة.. وتضطرب الأعصاب ويستولي الرعب على القلوب.. ويحتمي الناس في كل بيت بالمخابئ.. وينزل رضا وأمه إلى سلاملك العمارة التي يقيمان بها..

وفي السلاملك، يلتقي رضا بثريا.. ويربط بينهما الحب، وينمو هذا الحب بمرور الأيام.. ويحكي قصته لثريا فيتفطر قلبها حزنًا فتوحي إليه بوجوب السفر للمطالبة بحقه.. ويسافر إلى قريته، ويقابل الأستاذ البتانوني المحامي ويعرض عليه القضية ويحاوره المحامي ويساومه وتنكشف لنا شخصية البتانوني وما طبعت عليه من استغلال وطمع.. الأمر الذي جعل رضا يشمئز منه ويعود إلى القاهرة يحمل بين جنبيه أسى وحزنًا تخففه ثريا ووالدها بروحهما المرحة ونفسهما الطيبة.. وتستمر أحداث القصة ويخطف الإنجليز ثريا وتختفي.. ويظل رضا ووالدها ينتظرانها دون جدوى، ويشعر رضا أنه يجب أن يفعل شيئًا ليعبر عما في نفسه من ثورة على هؤلاء الذين اختطفوا حبيبته.. ويفكر.. وفي دوامة التفكير يقتل إنجليزيًّا من هؤلاء الذين اختطفوا "ثريا" ويعود رضا إلى قريته ليقابل البتانوني المحامي ويحضر أخوه في وقت وجوده بالمكتب فينسل خارجًا حتى لا يتقابل مع أخيه.

ويتم الاتفاق بين البتانوني وحمودة على حل يرضي الجميع ويخرج منه المحامي بنصيب الأسد ويشعر الجميع بارتياح لهذا الحل، ولكن يفاجأ رضا والمحامي بقتل حمودة.. وتؤول جميع الممتلكات إلى رضا الذي يغير معالم ظلم أخيه ويبدد شقاء الفلاحين إلى سعادة ويعيش هو وذكرى حبيبته ووالدها.

والقصة بعد هذا العرض الموجز لأهم أحداثها يربطها خط رئيسي وهو "الابن.. رضا" وتتفرع منه خطوط أخرى ثانوية تخدم كلها الغرض الذي يهدف إليه المؤلف.

والقصة تنقسم إلى قسمين: الأول تقع أحداثه في الريف.. والثاني تقع أحداثه في القاهرة.. ولكن المؤلف استطاع أن يذيب الحد الفاصل بين القسمين بحيث لم يبد كل قسم منفصلا عن الآخر؛ ذلك لأن المؤلف استطاع أن يربط بين المكانين ويطير بنا من القاهرة إلى الريف على جناح الذكريات التي يجدها رضا بين لحظة وأخرى. ومن ناحية أخرى عن طريق "حسن" صديق رضا الذي نراه يعاوده بالزيارة في فترات ليست متباعدة مزودًا بأخبار

"حمودة".. فكان "حسن" رسول المؤلف الذي استخدمه في ربط القارئ بالقرية المسرح الحقيقي الذي تدور عليه الأحداث..

وعبد الحليم عبد الله كاتب تصدر كتاباته عن إعمال فكر وروية؛ وذلك لأنه يعتبر القصة وعاء يصب فيه أفكاره.. وهذا الاتجاه الفكري - على ما أعتقد - يجعله يميل في بعض الأحيان إلى عرض الكليات وتقرير النتيجة التي من الواجب أن يصل إليها القارئ بنفسه من سياق الأحداث، ثم يفسر بعد ذلك الملابسات والظروف التي تحيط بالحدث.. ونلمس ذلك عندما تصحو "بهية" أم رضا في منتصف الليل لتجد رجلاً غريبًا فتصرخ لأنها أحست بقلبها "بأن المراد ليس سرقة ولا هتك عرض ولكن المراد فضيحة".. فأوحى لنا بأن في الأمر فضيحة دون تمهيد سابق يثبت ذلك، وعلى الرغم من هذا نجده يراعي بدقة التمهيد للأحداث وتهيئة القارئ ذهنيًا لما يستجد من مفاجآت.

ولقد صور المأساة وأبرز العنصر الأساسي المتسبب في وقوعها وهو المال.. فـ "رضا" لم ينفعه مال أبيه، وخاله بركات لم ينفعه مال زوجته التي تزوجها بعد قتل زوجها صاحب المقهى الذي كان يعمل به صبيًا.. ثم أصبح المالك لكل شيء المقهى والزوجة، فالمال لم يعط لبركات الأمن والاستقرار النفسي وراحة البال التي طالما ظل يبحث عنها بعد رحيله من القرية.. ولذلك ما إن حضرت أخته وابنها من القرية - لتجد عنده المأوى والحماية - حتى تفتحت مغاليق مشاعره الظمأى إلى الحب والحنان.

ولقد كشف المؤلف الغطاء عن شخصية بركات وما تنطوي عليه من حرمان "لقد كان مشتاقًا إلى حب بلا أشواك فيه شيء من الروحانية كرغبة السكران في الابتهال إلى الله، لقد كان المكسب الحرام والحياة الزوجية الثقيلة الوطأة دافعًا خلق فيه اللهفة إلى عمل شيء فاضل". وأبان كذلك عن الإحساس الديني الذي يكمن في أعماق بركات.. هذا الإحساس الذي جعله يرضى بما ارتكبه صبيه "عزوز" مع زوجته في أثناء سجنه خضوعًا لحكم الله جزاء له عما سبق أن ارتكبه مع زوجته هذه قبل أن يتزوجها وهي في عصمة زوجها.

ويبدو هنا إنسانًا معتدلاً لا يؤمن بالحلول القانونية.. سواء القانون السماوي أو الدنيوي.. هذا الإيمان الذي جعله يتجنب الصراع العنيف بين رضا صاحب الحق وأخيه حمودة الظالم.. من أجل استخلاص الحق الضائع، وسيأتي الحديث عن هذه النقطة.

وبعد أن قدم لنا "بركات" يقدم لنا "حمودة" الإنسان الذي دفعه الجشع والطمع إلى اغتصاب أخيه وحرمانه من حقه المشروع بمساعدة أمه "منيرة" التي فقدت بصرها وعاشت يأكلها الندم على جريمتها وزهدت المال والأرض التي شردت من أجلها أسرة رضا وأمه، وكان يمكن أن يكون مستقبلهما أحسن مما آلا إليه لولا جرمها. بعد أن رسم شخصيته من

الخارج رسمًا كاملاً غاص في أعماقه وكشف عن الرعب والخوف الذي يعيش فيهما ولا يستطيع أن يتخلص منهما رغم ما يملكه من مال وما له من سلطان.

ويأتي بعد ذلك "رضا" صاحب المأساة و"ثريا" حبيبته.

أما رضا فهو شخصية هادئة مترددة ليست إيجابية ولم تحقق ما كنا ننتظره من صراع عنيف تبدو فيه التضحية من أجل الأرض.. وإن كان قد يتغلب على هذا التردد الذي يقيده في مواقف مختلف من القصة، وتتبين هذه الإيجابية الذهنية في الحوار الآتي الذي دار بينه وبين أمه ذات ليلة وهما نائمان فقالت له أمه:

- ارقد يا حبيبي.

فرد في جفاف:

- لا أريد أن أنام، أريد أن أتكلم، أنا محتاج إلى الكلام أكثر من حاجتي إلى النوم.

فقالت في فتور:

- تكلم.. تكلم..

- لماذا خرجنا من بلدنا.. لماذا جئنا إلى هنا..

عند سماع هذا الحوار يخفق القلب خوفًا عليه ظنًا أنه سيقدم على خطوات جريئة.. ولكن يتبدد هذا الظن عندما تهدأ ثورته، "وثريا" حبيبته أكثر منه إيجابية وانطلاقًا.. ومن المعلومات التي قدمها لنا المؤلف عن شخصيتها نلمس أنها مستعدة للتضحية من أجل حبيبها.. وتبدو في ذلك أكثر حماسة منه وهو صاحب الحق.. ولقد لمست ثريا تردد "رضا" ويأسه؛ فكانت تلمزه لمزًا خفيفًا عندما تجد اندفاعه من أجل الحصول على قبلة لتحرك فيه نخوته، ونجحت في دفعه إلى السفر لمقابلة البتانوني "المحامي" . والأمر الوحيد الذي تحركت فيه رغبة الانتقام.. ونفذ فعلاً هذه الرغبة عندما خطف الإنجليز حبيبته.. إلا أنه كان يجب أن تتوافر في "رضا" روح التضحية والفداء من أجل حقه، ونهاية "حمودة" التي وضعها المؤلف الميالة إلى حب الهدوء في حل المشاكل والالتجاء إلى القانون السماوي أو الدنيوي في الحكم فيها كما أشرنا آنفًا جعلته يضفي شيئًا من شخصيته على أبطال قصته.

ولا يفوتني أن أشير إلى دقته في رسم الشخصيات من الخارج رسمًا دقيقًا كما يصورها من الداخل تصويرًا يكشف عما يعتمل في أعماقها من صراع نفسي.

وأخيرًا نلاحظ أن عبد الحليم عبد الله يربط بين الأحداث الخاصة والأحداث العامة وذلك في تصويره لحال رضا وما هو عليه من ضيق اليد؛ فهو انعكاس لحال المجتمع

المصري وما كان يعانيه من اضطراب وفقر في أثناء الحرب العالمية الثانية. كما أنه يستعمل الرمزية ويميل إلى التركيز في التعبير مما يكسب الأسلوب قوة.

ولا يفوتنا أن نسجل أنه لا يغفل الطبيعة في وصفه؛ فهي عنده كائن حي يحس ويشعر؛ فهي حزينة كئيبة إذا كان البطل حزينًا، وضاحكة باسمه إذا كان سعيدًا.

والحق أن عبد الحليم عبد الله ساق أحداث القصة في بناء متكامل وسرد مشوق كما كشف عن سحر المال وأثره في النفوس البشرية الضعيفة التي يستعبدها فيدفعها إلى إهدار القيم الخلقية والدينية.

أما أثبت قدرة في كتابة الحوار باللغة العربية دون إغراب في استعمال الألفاظ ودون أن تبعده اللغة العربية عن واقعية القصة كما يدعي هؤلاء الذين يكتبون الحوار باللغة العامية، والحقيقة أن كتابة الحوار باللغة العربية تحتاج إلى حاسة فنية لا تتوفر إلا للقليل من الكتاب.. وعبد الحليم عبد الله من هذه القلة القليلة.

الشعور الإنساني في قصة "رجال وثيران"

إن الفنان يمتاز عن بقية البشر العاديين بحاسة فنية وقدرة على التقاط الأشياء التي يمر عليها الإنسان العادي فلا تثير فيه أي إحساس ولكنها تثير في الفنان أحاسيسه وتحرك كوامنه فيعبر عنها بطريقته فبالرسم إن كان رسامًا.. أو الموسيقى إن كان موسيقيًّا.. أو الكلمة إن كان قصاصًا أو شاعرًا. وبذلك يمتاز الإنسان الفنان عن غيره من البشر؛ لأنه يفوقهم بحاسته الفنية وشعوره المرهف، وبقدرته على معايشة هذه التجربة ونقلها إلى القارئ، وفي عملية المعايشة هذه يختلف فنان عن الآخر، فمقياس نجاحه يقدر بصدقه في نقل التجربة وقدرته على إشراك القارئ معه وإثارة إحساساته وعواطفه سواء الساخطة منها أو الراضية.. ولذلك يجب ألا يتسرع الكاتب في التخلص من تجربته قبل أن تنضج النضوج الكافي ويحس بعد هذا النضوج أنه أصبح من الضروري أن يتخلص من هذا العمل.. ولقد ذكر يوسف إدريس أن مقدمة قصته هذه في معرض حديثه عن ثورة الجزائر: "ولقد انفعلت بكل ما رأيت في الجزائر قبل الاستقلال وبعده، ولكن يبدو وكأن الانفعال لم يكن قد نضج إلى الدرجة الكافية لكسر القشرة الإرادية والخروج إلى الحياة، كانت الصورة الأساسية لأي عمل يكتب عن ثورة عظيمة كثورة الجزائر يجب أن يكون في مستوى عظمة هذه الثورة؛ وأنَّى لي بهذا المستوى وأنا لا أزال بالكاد أتأمل ما رأيت، ودعيت وأنَّى لي به والمهمة شاقة، فالقضية لا تزال دافئة بالحماس ولا يستطيع الإنسان فيها إلا أن يجاري الشعور العام المنفعل بها بحيث تبدو الموضوعية نوعًا من السخف لا محل له".

ولقد ذكرني هذا القول بكلمة قالها تشيكوف عندما طلب منه أن يكتب عن الحرب الروسية اليابانية: "اسمع، من الضروري أن تمضي عشرون سنة أولاً، من المحال أن تتكلم عن هذه الحروب إذ لا بد أن تكون نفس الكاتب في طمأنينة وسكينة حين يكتب. وبغير هذا فلن يكون كاتبًا متحزبًا وصادرًا عن الهوى".

وننتقل بعد ذلك إلى قصتنا هذه "رجال وثيران" التي يصور لنا فيها يوسف إدريس تجربة وقعت حوادثها في إسبانيا، إذ يصور (مصارعة الثيران) اللعبة التي اشتهرت بها إسبانيا.. ولا شك أن كل إنسان شغوف لرؤيتها، ولا شك أيضًا أنه يشعر نحوها بالمتعة والاستحسان.. ولكن يوسف إدريس استطاع أن يلف بنا ويدور، ونحن نلهث وراءه وأخيرًا جعلنا نشعر بالعطف على أولئك الأبطال الذين يروحون ضحية قرون الثيران الغاشمة الطائشة، وأثار سخطنا على الدولة وعلى كل فرد أو هيئة تشترك في إقامة هذه الحفلات، والحق أن يوسف إدريس حلل في هذه القصة النفس الإنسانية تحليلاً دقيقًا وغاص في أعماقها

وكشفها عارية، لقد استطاع أن يعيش هذه التجربة الغريبة بأحاسيس الفنان وتجاوب معها واستطاع أن ينقلها مغلفة بانطباعاته وانفعالاته، ويشرك القارئ معه ويجتذبه ويربطه بالقصة ارتباطًا لا شعوريًّا، لقد اجتذبنا مع أبطال المصارعة عامة وبطله "أنطونيو" النحيل الذي انتقاه من بين المصارعين وأحس نحوه بميل شديد وقرابة متينة دون سابق معرفة، ولكنه الإحساس الإنساني الذي جعلنا أيضًا نحس بالخوف والشفقة عليه أولاً، ثم بالإعجاب بمهارته ثانيًا ثم بالحزن والأسف أخيرًا عندما لقي حتفه، لقد أحسسنا كما أحس المؤلف بقرابة متينة. قرابة الإنسان للإنسان، تلك القرابة التي تدفعنا بلا وعي أو إرادة لنجدة المأزوم إذا استغاث وحتى إذا لم يستغيث".

لقد امتزجت في هذه القصة روح يوسف إدريس كفنان وكطبيب يقوم بتشريح النفس الإنسانية ويغوص في أعماقها ويكتشف مكنونها، لقد تسلل في أعماق أبطاله من المصارعين وفي أعماق الجمهور في غفلة منهم وهم في شغل عنه بمشاهدة المصارعة؛ فحلل نفسياتهم تحليلاً كشف لنا عما يختفي في ثنايا النفس البشرية من قوة وضعف من شر وخير.. فالمصارع ساعة نزوله إلى الساحة يبدو متكبرًا وليس هذا التكبر إلا قناعًا يخفي وراءه الخوف من الخطر الذي يواجهه.

ولقد بين السبب النفسي الذي يدفع بهؤلاء الآدميين إلى الإقدام على الموت وذلك لأنهم نوع من الآدميين تشغفه المصارعة وتبهره كلمة بطل.. وقد يكونون من الفقراء أو بلا آباء ومجتمعهم ينكر وجودهم ولا يعترف بهم؛ فهم يريدون أن يفرضوا أنفسهم على المجتمع ويجبروا أفراده على احترامهم "وكثيرون منهم يفشلون" إنهم جميعًا أبناء فقراء، وأحيانًا بلا آباء، خرجتهم طفولة محرومة.. وصدهم وعاداهم المجتمع صبية وشبابًا، وفي المصارعة عثروا على أنفسهم، على الوسيلة التي يستطيع بها الشاب النكرة اليتيم أو ابن الحرام الجائع العاطل أن يفرض نفسه على المجتمع بكل ملايينه وثرائه وطبقاته..

ثم نراه يقسم الجمهور تقسيمًا حسب نفسياتهم ففريق ينسى ما رآه في الساحة بمجرد أن يغادرها، وتدور عجلة الحياة وينفصلون انفصالاً تامًا عن المصارعة؛ فهؤلاء هم أنفسهم الذين بحت أصواتهم هتافًا للمصارعة، وهو يضحي بحياته من أجل أن يمجد فيه؛ إذ يقوم بعمل من أعمال البطولة، وهم أنفسهم الذين لا يتورعون عن الكذب في اليوم التالي والخداع واستجداء الشفقة وإزجاء الملق للرؤساء.

وهناك فريق آخر سافر يقابل كل شيء حدث أمامه في الساحة بتعليقات هازئة وهو نوع يندم بعد خروجه على ثمن التذكرة. ثم فئة قليلة. هؤلاء الذين يتحيزون بحساسية مرهفة تنطبع في كل ما رأوه، وتصدمهم رؤية الدماء وجثث الآدميين يمزقها قرن ثور طائش غاشم،

يؤذي مشاعرها أن ترى القوة الغاشمة الجاهلية الحمقاء هي التي تفتك، والضحية هي الكائن الإنساني الراقي الشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم.

هذه الفئة جاءت من عالم الناس الكثيرين الصغار، ولكنها تخرج وقد زلزلت أعماقها متأثرة لفترة ما، تنتهي بعد ذلك الدفقات الحماسية من موجات الانفعال ويعودون بعد ذلك آحادًا من ملايين الصغار الكثيرين. ثم نوع نادر آخر وهو الذي يقهره عالم (الساحة) وسرعان ما تنضم إلى عالم المصارعين يدفعهم البحث عن المجد، يريدون أن يعثروا على أنفسهم في مجتمعهم الذي لا يعترف بهم وينكر وجودهم وأغلبهم يكون من الفقراء أو اليتيم أو ابن الحرام وهو النوع الذي أشرنا إليه آنفاً.

وهكذا نرى في هذا التقسيم أن يوسف إدريس ينفذ إلى أعماق النفس البشرية ويكشفها أمامنا عارية حتى إن الإنسان ليفزع لأنه لا بد عاثر على نفسه وسط هذا الخضم البشري المتلاطم.

ولقد استطاع في قصته هذه أن يجذبنا ويشدنا مع أحداثها وجعلنا نشعر بالسخط على هذه اللعبة البدائية التي لا تليق بإنسان العصر الحديث الذي تغيرت مقاييس البطولة عنده عما كان عليه أجداده، فلم يعد الإنسان اليوم يواجه القدر أو الخطر أو العدو وحده، إننا في عصر أصبحت فيه العداوات جماعية ومواجهتها أصبحت جماعية أيضًا "والعصور عصور الأفراد الكثيرين الصغار وقوى الطبيعة المتعددة التي استؤنست على هيئة آلات كما استأنس الأجداد الحيوانات البرية والوحوش". إن الإنسان اليوم لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين أمام القوى المتصارعة أمامه، لا بد أنه سيجد نفسه يعيش معها، لا يستطيع أن يقف منها موقف المتفرج ولكن سيجد نفسه حتمًا منضمًا لإحدى هذه القوى، إن الناس "تصفق لمن يقدم لها ببطولته المصلحة والخدمة العظمى، الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة أو بأخرى، من يسيطر على أكبر قدر ممكن من مصادر القوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للناس مطالب وأعمالاً عجز غيره عن تحقيقها". لقد انقضى عهد البطولات الفردية، ذلك العصر الذي يعمل فيه الإنسان عملاً ليمجد فيه نفسه فقط، مثل هذا الإنسان لم يعد بطلاً اليوم، ولكن البطل هو ذلك الذي يساعد في حل مشاكل البشر جميعًا، ذلك الذي يستطيع أن يفعل شيئًا بما أوتي من قوة وذكاء، شيئًا يخدم به الإنسانية، فالمشاكل اليوم متشابكة المصالح متصلة، إننا نعطي البطولة لمن يعمل لنا ولفائدتنا.

وبذكاء ولباقة استطاع يوسف إدريس أن يقود أحاسيسنا ومشاعرنا حتى جعلنا في النهاية نشمئز من هذه اللعبة الدموية، ونحس بأنها عار في جبين الإنسانية الراقية المتحضرة، وسكوت بني البشر على مثل هذه اللعبة جريمة في حق البشرية، جعلنا نوافقه بأن المسألة كلها

سخف وجنون وقلة عقل، والحقيقة أن قدرة يوسف إدريس القصصية ومهارته تجلت بوضوح في قدرته على نقل هذه التجربة بمعانيها الإنسانية، لقد جعلنا كلنا شهودًا على هذه المهزلة التي يتعاون أصحاب المصالح في إسبانيا على توفير سبل إنجاحها دون اعتبار إلى المشاعر الإنسانية، ولكنها المادة التي تعمي الأبصار والقلوب وتطغى على كل المشاعر الإنسانية وتدوس على كل المعاني السامية، هذا هو عصر المادة الذي يتحجر فيه الآدمي ويتحول إلى آلة تجمع المال ولا تبالي بالضحايا الذين يتساقطون كل يوم، ولكن سيأتي يوم يظهر من يحمي المشاعر الإنسانية ويحفظ كرامة الآدمي وكل جميل في الوجود، سيأتي يوم يفيق فيه والد "أنطونيو" البطل النحيف الذي لقي حتفه في النهاية بقرون الثور الغاشم، يقول فيه حقيقة المهزلة ويكشف للعالم أسطورة البطولات الكاذبة التي يعيش فيها الشعب الإسباني وليحدث له بعد ذلك ما يحدث، ولكن يكفيه أن سيقول الحقيقة التي تؤرقه، ولقد ساق يوسف إدريس القصة في أسلوبه الصحفي السهل.. كما نلمس بوضوح مرحلة جديدة من مراحل يوسف إدريس وهي اهتمامه بجزئيات الأمور وقد كان ينظر للحادثة ككل. واقعيته هي الواقعية المغلفة بإحساساته وعواطفه، كما أنه اهتم بتحليل مشاكل الإنسان في كل مكان، يبدو أنه يحمل على كتفيه مسئولية الإنسان في هذا العصر، ويحس بجرم إذا قصر في وضع الحلول التي تساعد الإنسانية على التخلص مما ينغصها ويؤلمها، وبذلك يكون قد انطلق من نطاق المحلية الضيق الذي يرسف فيه معظم إنتاج أدبائنا ويحد من قدرتهم إلى الانطلاق نحو آفاق عالمية واسعة.

وهنا يقفز إلى ذهني سؤال وهو كيف يكون أدبنا عالميًّا؟

والإجابة عن هذا السؤال وضعها يوسف إدريس وهي باهتدائه إلى القضايا الإنسانية فواجب على كتابنا أن يرتفعوا بمشكلات المجتمع وقضاياه إلى المستوى الإنساني، يجب ألا يعيشوا في دائرة ضيقة بعيدين عن الأحداث التي تقع في أرجاء المعمورة، فالمشاكل اليوم متشابكة والمصالح متصلة، والشعور الإنساني يربط بين بني الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يختلف هذا الشعور في الحكم على الحسن والقبيح في أي مكان.

فالاهتمام بالمشاكل الإنسانية يرتفع بأدبنا إلى مستوى العالمية ويقف جنبًا إلى جنب مع أدب سومرست موم وشكسبير، في هاملت وعطيل وماكبث التي صورت فيها النفس الإنسانية وما يتصارع فيها من أهواء، ومع تولستوي في حرب وسلام، وجان بول سارتر في مسرحياته مثل سجناء التونا.. هؤلاء الأدباء استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على الإنسانية؛ لأنهم تناولوا القضايا الإنسانية في أعمالهم، وأحسوا بمسئوليتهم تجاه البشرية، فلا نطلب من كتابنا إلا قليلاً من الجهد حتى يحققوا ما نريده من الجودة والكمال.

المزامير

تأليف: فتحي سلامة

لم تستطع القصة العربية حتى الآن أن تخدم القضية الفلسطينية وأن تؤدي الدور المطلوب منها؛ باعتبار هذه القضية من أهم القضايا الإنسانية التي تحتاج إلى الكثير من جهد القصاصين لطرح مأساتنا على الضمير العالمي لتستثيره وتكسبه في جانبنا معتمدين على المنطق المقنع في إنتاجهم والعاطفة لا على الخطابة والمباشرة.

وعندما نلقي نظرة على الإنتاج القصصي الذي كتب حول القضية الفلسطينية لا نجد عملاً قصصيًّا واحدًا يصل إلى مستوى قصة "كوخ العم توم" التي استطاعت كاتبتها الأمريكية هابت ستو أن تحدث ثورة ضد تجارة الرقيق، أو قصة "الحرام" ليوسف إدريس، عن عمال التراحيل ويمكن أن نقسم الإنتاج القصصي إلى ثلاثة أقسام،

الأول: ويتسم بالسلبية؛ إذ اكتفى بتصوير ما يعانيه اللاجئين من بؤس وشقاء، وتصوير الإعانات التي توزعها وكالة غوث اللاجئين، وتجد بجانب ذلك التعبير عن الحنين إلى مراتع الصبا والقرية والضياع، كل هذا عبر عنه في معظم القصص قصيرة كانت أو طويلة بأسلوب خطابي سردي مباشر غير مقنع، ولا ينفي ذلك وجود قصص جيدة كقصة "عروس ومأتم البدوي الملثم" وبعض قصص لغسان كنفاني.

الثاني: يمثل مرحلة جديدة متطورة في شخصية الإنسان الفلسطيني؛ فتجد الإنسان المثقف الناضج – نتيجة كثرة قراءاته وانفتاحه على العالم وثوراته وأحداثه – بدأ يناقش قضيته ووسيلة استخلاص حقه ويعبر عن تمرده ورفضه للواقع المفروض عليه، وبدأ يدرك أيضًا أن أولى خطوات العمل هي أن نبدأ بأنفسنا، كما يقول فوزي العمري في مجموعته "غزة من الخلف" : فيجب أن يؤخذ من أصحاب البيارات والتجار المتخمين بالثورة من المال ما يضمن استمرار الثورة، ونجد هذا الإحساس أيضًا عند يوسف جاد الحق في مجموعته "النوافذ المغلقة".

الثالث: وهو يصور الإيجابية العملية للإنسان الفلسطيني، وبدأت بعد يونيو ١٩٦٧ مع بداية الكفاح المسلح للمقاومة الفلسطينية التي تمثل لحظة الإشراق في ليل انكسار الأمة العربية، فظهرت أعمال قصصية تصور الفلسطيني الثائر القابض على سلاحه ليسمع العالم كلمته من خلال فوهة بندقيته، ومن هذه الأعمال: رواية "المزامير" لفتحي سلامة التي يؤكد فيها ضرورة استمرار العمل الفدائي كطريق لاستعادة الحق المغتصب، ويؤكد أيضًا صلابة الإنسان الفلسطيني وإصراره على تكملة المسيرة النضالية، ولقد

عبر عن هذا كله من خلال المعارك العنيفة التي خاضها "بلال" بطل الرواية ويخرج منها أكثر صلابة وإصرارًا على المقاومة.. وبلال إنسان عادي تفتحت عيناه عن مأساته وأحس بالظلم الاستعماري والصهيوني.. تلفت حوله فلم يجد أخاه الأزهري المناضل الذي اختطفه اليهود فأحب أن يكون مثله، فصمم على الرحيل إلى مصر ليتعلم في الأزهر ليناضل مثل أخيه.. لا تتحقق أمنيته لعدم توفر شروط الالتحاق بالأزهر.. ينضم إلى مجموعة فدائية في الإسماعيلية ويمارس العمل الفدائي ويخوض معهم المعارك.. ينتقل بعد ذلك إلى غزة ليقود العمل الفدائي بها، والكاتب في مسيرة "بلال" الطويلة يتتبعه من خلال المعارك العسكرية التي خاضها والمواقف الاجتماعية التي تعرض لها ليرسم شخصية "بلال" الثورية ويعمق الجانب الثوري عنده ويبرز الروح النضالية المتوهجة والتي لم تنطفئ حتى بعد فقده ذراعه في إحدى المعارك، والكاتب هنا يريد أن يؤكد أن المقاومة لن تنتهي بفقد ذراع أو بفقد رجال، فهذه التضحيات علامات على الطريق تهتدي بها الأجيال القادمة المتمثلة في "وليد" ابن أخت "بلال".

والرواية من روايات الشخصية فـ "بلال" هو الشخصية الرئيسية التي تحرك الأحداث التي تنمو في اتجاه واحد.

والكاتب يقدم "بلال" في صباه وتمرده على يوسف اليهودي وأخته راشيل ويقدمه في شبابه وتوهجه الثوري.. في انتصاره، وفي انكساره ولقد تعاطفنا معه في جميع مواقفه لأن الكاتب قدم نموذجًا إنسانيًا واقعيًا ولم يقدم نموذجًا بطوليًا مثاليًا وأسطوريًا يتخطى جميع العقبات فـ "بلال" عندما يعود إلى قريته بعد هجوم إسرائيلي ويرى أخته ميتة تحت الأنقاض يثور ويتمرد على نفسه وعلى الواقع المرّ المفروض عليهم ويثور أيضًا على الله (ماتت أسرتي، واللحظة الباكية مضت، ذلك حكم غادر من الملعونين في السماء والأرض وبسببهم، يا إلهي أين أنت؟ هل كل الأرض تحظى عندك بنفس القدر من العناية؟ ورحمتك وبركتك تنزلها علينا كما تنزلها على العالم كله بنفس القدر؟ يا رب امدد لنا يدًا أو اقذف بنا جميعًا في أتون الجحيم، لا تبق منا أحدًا أحرق هذه الأرض، انسفها من ملكك إن كنا أخطأنا، لكن لا تسلط علينا الملعونين من عبادك).

ونتعاطف معه أيضًا في لحظة عجزه الاقتصادي لقلة دخله من عمله كخفير لأحد المخازن بعد فقد ذراعه، فهو يشعر بالانكسار الحقيقي بشكل حاد جدًا لم يشعر به عندما وقع أسيرًا في يد الأعداء.. أحس بالانكسار حقيقة عندما مرض "وليد" ولم يستطع أن يحضر له الدواء، فيعرف تمامًا معنى اللعبة التي يلعبها صانع الخبز ومالكه ويفهم سرها، لماذا يمنع عنه

الرغيف؟ ويظل يبحث عنه ويفكر في وسائل الحصول عليه.. فيضع حجرًا فوق حجر ليصل إلى الرغيف ولكن "الرغيف يعلو قامة الرجل، فيأتي بحجر ثالث وينجح الرجل أخيرًا في وضع الأحجار فوق بعضها طبقات ويصعد عليها ليمد يده نحو رغيف الخبز والمعدة جائعة والأحجار غير ثابتة تهتز...

ولا يستطيع الحصول على الرغيف إلا إذا وقف منتبهًا، ويشغله هذا عما دونه من الأمور فلا يدري إذا كانت عورته مستورة أو مكشوفة، ولو فكر في ذلك لسقط من فوره وبعدها لن يحصل على الرغيف،.

ونشعر بالاعتزاز به وهو صبي عندما يرفض بعض النقود التي يلقي بها زائر أجنبي ويمنع صديقته فاطمة من التقاطها من التراب قائلاً: سنعود يومًا إلى ديارنا والراغب في العودة لا يتسول ولا يلتقط النقود من فوق التراب.

ورغم أن القصة تستمد أحداثها من الواقع إلا أن بطلها يسلك سلوك الرمانتيكيين؛ فهو كثير الأحلام والهروب إلى نفسه يستبطنها، ويتضح ذلك في المنولوجات المتكررة. والأحلام يلجأ إليها الرومانتيكيون كثيرًا؛ لأنها كما ورد في كتاب الرومانتيكية للدكتور غنيمي هلال وسيلة وقوة عجيبة تتكشف فيها ثنائية أنفسنا لأنها حوار تقوم به وتمثل فيه وكما يقول هيردر : "إن الحلم إيحاء إلى الإنسان بجوهر نفسه، وإنه أقصى خصائص الحياة وأكثر مظاهرها جدة، وإنه في صفائه صورة للنفس الصادقة، ورباط ما بين الإنسان والعالم، وطريقه لمعرفة ما وراء الشعور وما وراء الطبيعة".

ولقد نجح فتحي سلامة في استخدام الأحلام في الرواية فكان بعضها تنبؤًا بالمستقبل أو تعبيرًا عما يكرب البطل أو يحزنه.

وليس معنى هذا أن البطل في هذه الرواية مصاب بسوداوية البطل الرومانتيكي كما هو معروف في القصص الرومانتيكية، ولكنه إنسان إيجابي متفائل عملي يعيش واقعه ويشارك فيه، والكاتب يرتفع أسلوبه إلى الأسلوب الشعري، كما أنه يلجأ إلى التعبير بالصور والأشكال في بعض المواقف التي يعلق عليها ليجسد بعض المعاني وينقلها من عالم اللاشعور إلى العالم الملموس، كما في صفحة ١١٩، ١٤٣. كما أن الكاتب يذكر كل شيء عن البطل ويهتم بكل التفاصيل؛ وذلك ليلقي الأضواء التي تساعد على فهم الشخصية، وهو هنا يذكرنا بقصص نجيب محفوظ التاريخية والاجتماعية، وحرصه على ذكر أدق التفاصيل عن شخصيات رواياته.

ولقد استطاع فتحي سلامة أن يغرس في نفوسنا شخصية مهمة وهي شخصية الـشيخ الضرير، التي تظهر من أول الرواية حتى نهايتها، وهي بمثابة العقل المفكر للشعب والمنقذ له في لحظات الحيرة والضياع؛ بما يعطيه له من حكمة خلاصة تجاربه الطويلة.

والكاتب لم يضفِ عليه طابع الشخصية الأسطورية ولكنه يعطي له الأساس الـواقعي ليشعر المتلقي أنها شخصية حقيقية من بين الشعب.

وأخيرًا أحب أن أشير إلى ملاحظتين هما:

كان من الأفضل بدء الرواية من الفصل الثالث؛ فهذا يعطيها قوة أكثر ويضمن الفصل الأول والثاني – وهما عن مرحلة الصبا – في ثنايا الرواية عن طريق المونولوج.

في ص ١١٨ يتحدث عن البطل وهو في إحدى المعارك العسكرية فإذا به يتذكر فتـاة جميلة كانت تسكن في الإسماعيلية، فيتذكر عينيها وشفتيها ورغبته في امتـصاص رحيقهـا، ويسترسل في وصف الفتاة وينفصل عن الجو المحيط به انفصالاً تامًا لا يفيق منـه إلا وهـو أسير في أيدي الأعداء، وهذا غير مقبول فنيًّا؛ لأنه ينقل القارئ من جو المعركـة إلـى جـو مخالف لا يتفق وسياق الموقف.

وهاتان الملاحظتان لا تقللان من قيمة هذا العمل الروائي الذي يؤكد قـدرة الكاتـب الفنية التي اتضحت من قبل في رواية "الجرار رقم ٣٥" وهي قدرة فنية يدعمها وعي وثقافـة يثريان العمل الفني.

الخروج من الدائرة

تأليف: مكرم فهيم

لقد أثرت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ في المجتمع تأثيرًا كبيرًا وأحدثت شرخًا عميقًا في الإنسان الذي يعيش فوق هذه الأرض، وبالتالي طرحت عدة قضايا مصيرية حول وجود الإنسان وعلاقاته بأخيه الإنسان من ناحية وعلاقاته بالدولة من ناحية أخرى... وانصهر الإنسان في بوتقة التساؤلات تحرقه التطلعات المستقبلية الضبابية وأصبح سندبادها الضارب في بحار التيه بسيفه المكسور وأمانيه المبقورة مدفوعًا فقط بغريزة البقاء الأدبية إلى اجتياز هذا البحار عله يطاول بعنقه السماء ويمحو بإصراره خطيئته.

ولقد انعكست صورة الإنسان القلق والمضطهد في الروايات التي صدرت بعد يونيو ١٩٦٧ مثل رواية "سكر مرّ" لمحمود عبد العال ورواية "الصمت والصدى" للدكتور أمين العيوطي؛ ففي هاتين الروايتين نجد شخصيات قلقة فاشلة محبطة تبحث عن الانتماء، قد يدفعها هذا القلق إلى الخيانة كما في "سكر مرّ" أو إلى القتل كما في "الصمت والصدى" ، ونجد صورة لهذا الإنسان أيضًا في رواية صدرت حديثًا وهي "الخروج من الدائرة" لمكرم فهيم.."
وهي تطرح قضية يسري حسانين المصري العقائدي التقدمي المنهزم العائد من سجنه إلى بيته، فيشعر بالغربة في أسرته وفي مجتمعه.. فالأخوان عبد الواحد المهندي الذي يتولى الإنفاق على الأسرة باعتباره الأخ الأكبر، ومهدي الطالب بكلية الطب الحالم بتحقيق تطلعاته البرجوازية بعد التخرج يرفضان خط يسري وأفكاره المتطرفة التي لم يحصد منها إلى السجن والفضل والضياع والتأخر في الحصول على الليسانس.. وينشأ الصراع بينهم بسبب المال؛ وكان يسري المهزوم دائمًا في حاجة للمال والمأوى ليتمكن من الحياة.. وتحت وطأة إحراج عبد الواحد له كلما طلب منه مالاً وسخرية مهدي المستمرة التي تؤدي أحيانًا إلى الاشتباك بالأيدي، وتحت وطأة حرقة العطش وألم الجوع، "إذا عطشت يسقيني لعابًا مبصوقًا وإذا جعت أمضغ أعشابًا صفراء". رافضًا له مدفوعًا بحقد الطفولة المختزن في الأعماق حيث كان يسري يتمتع بالحظوة عند والديه وعند بنت الجيران. راح يسري يبحث عن وظيفة ليخرج من دائرة الخضوع لأخيه عبد الواحد ويكسر دائمًا الحجة والعوز وينتصر على حقد أخيه مهدي.. ولكنه يقع في دائرة ضابط المباحث الذي يخبره بضرورة البحث في ملفه قبل أن يعمل "لنجس أرجاء السرداب نفتش أركانه أولاً ثم نعطيك تصريح العمل".. أحس يسري بقهر المحاصرة، فكل من حوله يطاردونه.. يعود الضابط للمساومة مرة أخرى.. الاعتراف ثم الوظيفة.. ويعترف يسري، وأحس بالتمزق والاحتقار.. وتسلم العمل في أرشيف مصلحة الموازين

والتمغة.. ولكن يتحرك في يسري الحقد والكراهية.. تتحرك فيه روح التمرد والكبرياء قالت لي الأشواك ذات النيوب: اسمي الحقد والكراهية.. أيها الثائر القديم إني سلاحك.. في البيت تبادلنا نظرات المقت.. ثم التحمنا في عراك.. ودافعت الأشواك الجديدة عن نفسها في ضراوة.. سال الدم.. عرفت أن صوت الأشواك الجديدة هو صوت بقايا الإنسان الداخلي "واستجاب يسري لصوت كبريائه وأخذته النعرة الثورية القديمة التي جعلته يصرخ في وجه مديره قائلاً بأنه جزء من حركة التاريخ، وأنه لن يعتقل التاريخ بين جدران الأرشيف ويستقيل من العمل.,, ويعود إلى أخويه ويخبرهما بأنه سيعود إلى الكلية مرة أخرى وهذا تصرف إيجابي متوقع من "يسري" باعتباره شخصية ثورية، يعود الصراع ثانية بينه وبين مهدي.. يسخر من فكرته ويكشف عن حقده المختزن.. الدائرة تضيق والصراع يشتد وتحركت أنياب الكراهية والحقد.. ويثور على كل شيء حوله "أنا أكرهكم جميعًا.. أكره المشانق والجدران الصماء.. الأنياب في اللحم.. والسكين في العنق.. الأكاذيب في الملفات فوق المكاتب اللامعة تطل منها عيون من زجاج. تنفجر منها ضحكات عربية ممزوجة بالتوابل".. وينطلق يسري بحقده وكراهيته وتمرده وليسانسه الذي حصل عليه بالكفاح إلى والد صديقه سعيد رفيق نضاله وسجنه يطلب مساعدته حتى تعينه القوى العاملة، ورغم سخط الرجل عليه لتغريره بابنه يعطيه كارتا للحاج جابر أحد تجار الأزهر الكبار ليعمل في متجره.. ويكتشف يسري أن الحاج جابر أمين وحدة الاتحاد الاشتراكي بالأزهر ولكنه عدو لكل جديد بالقول والفعل والمصلحة ويقول عن الاشتراكية "من يوم أن حلت بنا الاشتراكية والنحس حليف وصديق".. ثم يعين بعد ذلك في إحدى شركات الأغذية المحفوظة.. ويختتم يسري رحلته عند أحد الأطباء النفسيين ليعالج من كآبته النفسية فينصحه بأن "يعمق لحظة الحب لابن أخته الذي استشهد في سيناء" ويمتلك القدرة على الكراهية من جديد "وأنه يجب أن يخرج من دائرة الحصار ويسقط العالم القديم ليستطيع الحياة؛ فينصحه قائلاً: "مزق بطاقتك الشخصية".. مزق شهادة ميلادك.. واتخذ لنفسك اسمًا جديدًا.. وسكنا بعيدًا "وينفذ يسري نصيحة الطبيب فيشعر بالراحة ناظرًا بأمل وتفاؤل إلى شقيقيه الصغيرين محط الآمال في الخلاص.

فنحن نرى أن "يسري" يتحرك بالحقد والكراهية اللذين يعبر عنهما الكاتب بشكل واضح بألفاظ صارخة مثل: "كلاب"، "بركة فيرمالين"، "مستنقع من اللباب المبصوق.." من أول الرواية إلى آخر كلمة فيها، حتى الطبيب ينصحه بأن يمتلك القدرة على الكراهية من جديد، وهذا موقف غريب غير مقبول من الطبيب؛ لأنه المفروض أن يمسح الحزن والكراهية من نفسية يسري ويفجر فيه طاقات الحب والخير لأفراد أسرته ولأبناء وطنه؛ ليتمكن من مواصلة حياته؛ لأن البناء القائم على الحب والصفاء بناء متين لا ينهار ولا يتحطم كما تحطم

يسري المشحون بالكراهية.. كما كان من الأفضل التعبير عن ضيقه باتخاذ موقف كاستقالته من مصلحة الموازين عندما تحرك فيه كبرياؤه الثوري القديم بدلاً من السيل المستمر من الألفاظ التي يتقبلها يسري في كل لحظة. ويسري شخصية تقدمية مغرورة يعتقد أن سجنه جعله جزءًا من حركة التاريخ ويعتقد أن العالم كله انتهى وهزم بانهزامه؛ ولذا فهو يرفض هذا المجتمع الذي لم تتفق أفكاره مع مبادئه ومعتقداته التي تطالب بالصراع الداخلي في نطاق الوحدة الوطنية؛ ولذا كان تمزيق بطاقته الشخصية وشهادة ميلاده وتغيير اسمه ومحل إقامته تعبيرًا ظاهريًّا عن هذا الرفض والاعتزال المؤقت للعمل السياسي معلقًا الأمل على شقيقيه الصغيرين في تحقيق آماله التي لم يستطع تحقيقها، وهذا التغير تغيير شكلي وليس تغييرًا جذريًّا في أفكاره ومعتقداته ليتواءم مع مجتمعه المسالم الذي يجري التغيير بدون صراعات داخلية، وكان المنتظر من شخصية حنكتها التجارب كيسري أن يعيد التفكير في أفكاره ومعتقداته من جديد ليواصل حياته بالحب العميق وبطريقة سوية لخدمة المجتمع.

والرواية من روايات الشخصية التي تدور حول بطل واحد يحرك الأحداث ويؤثر فيها، فيسري هو الشخصية الرئيسية وباقي الشخصيات ثانوية وظفها الكاتب لإبراز الضغوط التي تحاصر يسري، ولقد خرج الكاتب في هذه الرواية من الشكل التقليدي الذي نجده في روايته السابقة الاجتماعية "هدير" فقد تخلص في "الخروج من الدائرة" من الوصف المسهب والتقريرية ولجأ إلى الأسلوب المكثف الذي ارتفع في بعض المواقف إلى الأسلوب الشعري للتعبير عن شحنات الغضب والكراهية وإن كنا نجده في موقف يسري مع ضابط المباحث يضيع التأثير المطلوب منه؛ لأنه جاء في حوار مباشر بين يسري وضابط المباحث الذي يطلب منه الاعتراف فيسأل يسري: وما فائدة الاعتراف وأنتم تعرفون كل شيء؟ فيخبره الضابط بأن "الفائدة جمة.. عندما تقول فإنك تذوي من الداخل. تتهرأ.. فتصبح شيئًا.. جرذًا أو دودة أو حشرة أو صرصارا" وكان من الأحسن فنيًّا أن يأتي هذا التفسير وتبيان الغرض من الاعتراف على لسان شخصية أخرى أو في حديث نفسي ليسري.

وإن كان الكاتب قد كتب روايته بأسلوب الرواية الجديدة إلا أنه لم يقع فيما وقع فيه بعض الكتاب في الغموض الذي يضيع قيمتها الفنية؛ فجاءت روايته واضحة لا غموض فيها ولا رمزية ولكن بها بعض الإشارات والتلميحات إلى معركة يونيه ١٩٦٧ وإلى الوصوليين الذين شوهوا مسيرة الاشتراكية مثل الحاج جابر.

كما أنه استخدم في الرواية ضمير المتكلم والتداعي استخدامًا واعيًا لــم نــشعر بــأي انتقال مفاجئ.. ولقد أثبت الكاتب قدرته الفنية وسيطرته على أدواته الفنية أكثر مما كان فــي روايته "هدير" وهذا يبشر بروائي سيحقق الكثير في ميدان الرواية بمحاولاته الدائبة لتطــوير أدواته الفنية والبحث عن أشكال جديدة للرواية.

ليل العبيد

تأليف: نجيب الكيلاني

ليل العبيد، ليل الأسى والعذاب والحرمان، ليل ثقيل يحمله المسجونون على أكتافهم وينأون بحمله، ولطالما دفعهم الأمل إلى الخلاص منه.. ولكن تمنعهم الأسوار العالية الصماء والأسلاك الشائكة والحراس المسلحون والصحراء الموحشة اللانهائية.

كل هذه الأشياء تذيب آمالهم، وتردها كسيرة إلى صدورهم لتعاني مع أصحابها ذل السجن وهوانه.

والعبيد في هذه القصة يحسون بآدميتهم ويشعرون بوجودهم ويعتزون بكرامتهم لذلك فهم دائمًا ثائرون، متمردون لا تمنعهم القيود الحديدية ولا مدير السجن "عبد الهادي بك" والباشسجان "الشلقامي" من الثورة والانتقام لإنسانيتهم المهدرة وكرامتهم التي يدوسها الباشسجان المستمد ذاته وقوته من زيه العسكري وسلاحه الذي يحمله..

هذه هي الفكرة الرئيسية التي يريد أن يبرزها الطبيب "نجيب الكيلاني" في قصته "ليل العبيد"، وساعده في إبرازها الشخصيات التي قدمها سواء الرئيسية منها أو الثانوية.

ففارس محكوم عليه بالسجن لارتكابه جريمة قتل أخذاً بثأر أبيه، فهو إنسان يحس بإنسانيته ولا يقبل أن يدوسها أحد، ويعتز بكرامته ولا يرضى أن يجرحه إنسان مهما كان، إنه يشعر بوجوده وبذاته ولا يريد لهذا الوجود أن يزلزل ولا يمرغ في التراب، لقد بكى عندما رأى زوجة المدير تنظر إليهم باحتقار، لقد عز عليه أن يرى إنسانة تنظر إليهم جميعًا نظرة تقلل من شأنهم.. لماذا تنظر إليهم باحتقار؟ وهم آدميون مثلها.. فقال لزميله عبد الحميد "زوجة البك عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة، آه يا عبد الحميد إنها شابة حرة جميلة ولا شيء يثقل قلبها عندما رأيتها، تذكرت أني قضيت في هذا الليمان عشر سنوات، سجنت وأنا في الخامسة والعشرين، وهأنذا أتخطى الخامسة والثلاثين".

فمأساة فارس في السجن أنه يريد أن يحافظ على كرامته، ومن أجل ذلك يدافع عنها ويطالب سجانيه أن يحترموها.. لم تستطع العشر سنوات التي قضاها بين الصخر والعذاب والهوان أن تميت في نفسه حبه للحرية، وإحساسه بذاته، لم تستطع أن تخنق الصوت الذي يصرخ في أعماقه.. صوت إنسانيته.. وهذا الإحساس يدفعه إلى التفكير.. لأنه طالما يفكر فهو موجود.. ولم يفقد عقله.. وفقدان العقل هذا هو ما يخشى وقوعه، إذا زحفت عليه السنوات العشر ويستسلم لهذا الزحف حينئذٍ سيموت كل شيء بالنسبة له مثلما حدث لزميله "الشيخ سلامة".

لقد كره فارس كل شيء. كره أباه الذي قتل، وكره أمه التي دفعت به إلى هذا المصير السفلي الذي تهان فيه الإنسانيات.. إنه ثائر، وفي ثورته يتمرد على قضاء الله.

لقد جسم "نجيب الكيلاني" مأساة المساجين في "فارس".. ذلك الإنسان الذي يصرخ بأعلى صوته مطالبًا بأن يعامل المساجين معاملة الآدميين لا معاملة الحيوانات.. أليسوا بشرًا مثل هؤلاء الحراس.. مثل "الشلقامي" ؟ الباشسجان الذي يجد لذة في إذلالهم ويشعر بالفخر عندما يرى نظرات الرعب والخوف ترتسم على وجوههم.

إن "فارس" لا يرضى أن يخلع عنه كرامته في السجن لكي يعيش هانئًا، بل يضعها فوق رأسه، ولا يقبل أن يمسها "الشلقامي" ولا غيره، إنه لا يريد أن يدرك الحقيقة التي أدركها زميله "عبد الحميد" وهي: "ولكي تعيش هانئًا في السجن يجب أن تكون ذليلاً، اخلع عنك كرامتك عندما تخطو عتبة السجن إلى الداخل".

إنه لا يستطيع أن يضغط أعصابه ويتحكم فيها وهو يرى كف "الشلقامي" تهوى على قفاه كلما طاب له ذلك. فلم يدر ذات مرة إلا وهو يقذفه بطبق الفول في وجهه.. ماذا كانت النتيجة؟ لقد انهالت عليه العصي وذابت تأوهاته تحت أقدام الحراس ولم يفق إلا على صوت المدير وهو يصرخ آمرًا بجلده.. ورغم ذلك لم تهدأ إنسانيته.. إنه إنسان ويجب أن يعامل كما يعامل الآدميون.

إن نجيب الكيلاني يقدم من خلال شخصية "فارس" صورة من حياة السجون وما يلاقيه المسجونون من معاملة قاسية، كما يكشف عن نفسياتهم المعذبة ويصور أحاسيسهم ومشاعرهم، كما قدم صورة صارخة للحراس، متمثلة في "الشلقامي" ذلك الإنسان الفظ غليظ القلب، الذي يجد لذة كاملة ومتعة في تعذيب الغير إشباعًا لما يعانيه من نقص في شخصيته تعويضًا لما يجده هو الآخر من هوان من رؤسائه.. هو أن يشعره بأنه عبد أمامهم رغم أنه حر غير مقيد بسلاسل مثل هؤلاء المساجين، إنهم أحسن منه لأن كلا منهم يحترم الآخر احترامًا حقيقيًّا لا زيف فيه ولا نفاق، إن ذاته تتلاشى إمام المدير، لذلك فهو يجد متنفسًا عما يعانيه من عذاب نفسي في أمر ونهي هذا القطيع المسلسل، ويلم شتات نفسه الضائعة وكيانه المهدم؛ من أجل ذلك يزيد الشلقامي من تعذيب المساجين ويمعن في إيذائهم ليشفى غليله ويغذي عقدته.

ولم يشأ المؤلف أن يترك بطله "فارسًا" دون أن ينتقم من المدير ومن الشلقامي وأمثالهما من الرجال ذوي النفوس الضعيفة الذين يتشبثون بالمظاهر الشكلية الخادعة ليوهموا الناس بأنهم أقوياء.

ودبر الدكتور نجيب وسيلة للانتقام.. ولكن كيف؟

إنه يتسلل بنا إلى منزل المدير لنرى ماذا يدور في منزل هذا الرجل الذي يهابه الجميع ويطلقون عليه "وحش السجون".. هل هو وحش كذلك في منزله؟.. ودخلنا المنزل.. ولكن ماذا رأينا؟،

رأينا زوجة شابة جميلة متفجرة الأنوثة.. أراد المؤلف أن يكشف لنا عما يعتمل في نفسها من ثورة مكبوتة في أعماقها.. إنه يقدم لنا سر مأساة "عنايات هانم" الشخصية الثانية في القصة.. ضحية العادات والتقاليد التي ترغمها أسرتها على اتباعها رغم أن والدها ووالدتها يدركان أن ابنتهما تحترق. إن "عنايات هانم" تعيش في جحيم رغم الثراء الذي ترتع فيه والجاه الذي تتمتع به، ماذا يؤرقها ويعذبها إذن؟

الإجابة عن هذا السؤال نجدها في المعلومات التي قدمها المؤلف ليمهد بها لوقوع المأساة.. مأساة الخطيئة.. وصف زوجها المريض الذي يعيش وفقًا لأوامر الأطباء ومرضه هذا يمنعه من أداء واجباته تجاه زوجته.. ولذلك كثيرًا ما يدب الخلاف بينهما ويحتد وترتفع حرارته فينقلب إلى مشاجرة صاخبة تنتهي غالبًا بانهيار الزوج وخضوعه واعتذاره.. في هذه المشاجرات تكشف حقيقة مشاعر الزوجة وإحساساتها وعواطفها تجاه زوجها فنسمعها تصرخ في وجهه ثائرة غاضبة: "أنت أناني جشع.. أكرهك.. أكرهك".

عندما نطقت بهذه الكلمات كانت مشحونة بكره عشر سنوات تحملتها بكل عذاباتها وآلامها، إنها فعلت مثلما فعل "فارس" عندما قذف بطبق الفول في وجه الشلقامي.. إن المؤلف يقابل بين وضع "فارس" ووضع "عنايات هانم" فالاثنان يشتركان في إحساسهما بالظلم وبأنهما عبدان.. فالأول عبد للقيود الحديدية التي تجبره على الخنوع للشلقامي والثانية عبدة لزوجها وللعادات والتقاليد وكلاهما يريد الخلاص من هذه العبودية.

هاتان الشخصيتان إيجابيتان ورسمهما المؤلف رسمًا دقيقًا من الخارج ومن الداخل، لقد أجرى في عروقهما دماء حارة تفور عند الإحساس بأي غبن، ولقد عبرت كلتا الشخصيتين عن نفسيهما تعبيرًا واضحًا من غير غموض، تعبيرًا يناسب تفكيرهما إلا في بعض المواقف جاء الحوار مشحونًا بأفكار أعلى من مستوى تفكيرهما، وسنشير إليهما فيما بعد:

إن "عنايات هانم" لم تأل جهدًا في التعبير عن سخطها عندما توافيها الفرصة، فلنستمع إليها وهي تحدث زوجها:

- "هل كتب عليّ أن أتبعك كظلك؟؟ إني أشعر أحيانًا بالرغبة في الانفراد بنفسي.. أريد أن أتصرف كما يحلو لي بعض الوقت.. لماذا أجدك صلبًا تأبى إلا أن تضع سدًّا يواجه إرادتي كإنسانة.. أشعرني بحريتي وآدميتي ولو ليومين.. أرجوك، أرجوك".

إن المؤلف مهد لانحراف "عنايات" تمهيدًا فنيًّا يشرح ظروفها لدرجة أننا أحسسنا أن الانحراف في هذه الحالة محتم لا مفر.. إن الزوج مريض ممنوع من أداء واجباته الزوجية بأمر الأطباء.. فماذا تفعل عنايات وهي في ريعان الشباب.. إنها أرض عطشى تريد أن ترتوي..

ولكن كيف؟.. وهي زوجة تحكمها القوانين الأسرية.. وعادات وتقاليد؟.. ولكنها أنثى.. لقد ساق المؤلف مونولوجًا داخليًّا رائعًا يكشف عن حرمانها وقلقها "وتمتمت: ماذا؟ أأظل هكذا سنين أخرى، وأحيا في هذا الحرمان والضيق؟ والنهاية؟.. شيخوخة ثم موت.. وبضع آيات من القرآن على روح الفقيدة، ورجال يشربون القهوة السادة، وطائفة من فقراء المشايخ والمساكين يملئون بطونهم بالطعام، ويقرءون الفاتحة، وأربطة عنق سوداء، وسطور قليلة من صحيفة، وسيدات في أردية سوداء، وقبر ضيق ولا شيء بعد ذلك سوى النسيان.. مصير تعس، ولو كنت أحيا كما يحيا بنو البشر السعداء لبرقت أحلامي بالمرح، وتوشت أيامي بالبهجة، ولنسيت كل الآلام والأحزان".

في هذا المونولوج حلل نفسيتها وأبان عن رغبتها في الانطلاق.. وشوقها إلى المتعة التي تفتقدها، ويتدخل القدر لتحقق أمنيتها.. فتعثر على الضالة المنشودة تعثر على "فارس" الذي استدعى من زنزانته ليصلح النور في منزل المدير.. وتراه عنايات.. ويستيقظ في أعماقها الشيطان وتتفجر فيها ينابيع الأنوثة.. لقد رأت فيه الرجولة التي افتقدتها في زوجها عشر سنوات.

وذات ليلة، يسافر زوجها إلى القاهرة لإجراء بعض التحليلات الطبية.. وتفكر.. لماذا لا تحقق بغيتها وتظل كما هي السيدة المحترمة.. وتهتدي إلى الوسيلة.. إنه النور، وقطعت الأسلاك.. ويحضر فارس.. وتقع الخطيئة.. فتكون بالنسبة لها متعة وراحة وانتصارا.

ووطدت عزمها على الاحتفاظ بهذا الانتصار لتحظى بالمتعة أوقاتًا أخرى، وترسم خطة المهادنة مع زوجها.. فتغير معاملتها له لتكسب ثقته واستطاعت أن تمثل دورها بمهارة إلى درجة أذابت كل شك في نفسه.

أما الخطيئة بالنسبة إلى "فارس" عذاب ضمير وثورة.. لقد ارتكب جريمة تعد كبيرة من الكبائر كما يقول فقيه قريته.. ويعضه الندم ويبكي ولكن تطفو ذكريات العذاب الذي يعيش فيه هو وزملاؤه كل يوم.. يتذكر يد الشلقامي وهي تهوي على قفاه.. وجه المدير الجامد وهو يأمر بجلده عندما قذف الشلقامي بطبق الفول.. فيحس بالراحة والسعادة.. لقد انتقم لكرامته وكرامة زملائه.. وضحك من المدير وحش السجون.. وتتكرر الخطيئة وتفوح رائحتها بين

جدران السجن ويشمها كل إنسان.. ويعلم الزوج أخيرًا بالجريمة.. ويحس بالإهانة ويفكر في الانتقام.. ينسى كل شيء.. ينسى نفسه.. ومنصبه.. ويتضاءل أمام الشلقامي.

ويكشف المؤلف عن نفسية المدير في هذا الحوار عندما يطلب منه أن يقتل "فارس".. فيرد الباشسجان بأنه عبد طوع البنان وتحت الأمر فيجيبه المدير قائلاً:

- أنا لا آمرك يا شلقامي.. لتنس الآن أنني مدير وأنت سجان.. نحن منذ اللحظة أصدقاء.. أنا أستنجد بك لترد لي اعتباري وكرامتي وستجد في المستقبل الجزاء الأوفى هل تفهمني؟

في هذه الكلمات كشف الدكتور نجيب عن مدى ما وصل إليه المدير من تصاغر وتضاؤل.. إنه يكشف عن الناس الصغار النفوس..

وتنتهي المأساة بقتل "فارس" وبطرد الزوجة، وتنكشف الجريمة التي دبرها "عبد الهادي بك" مع الشلقامي ويقدمان للمحاكمة.. ولكن موت فارس لم يحل المشكلة.. لقد أصبح بطلاً تتناقل قصته الأجيال المتعاقبة على السجن.. لقد انتقم لشرفهم، انتقم لعذاب إخوانه السابقين والقادمين، إنهم يشعرون بالأسى على شهامته ورجولته اللتين طواهما الثرى.

إن "فارس" أو "عنايات" يعتبران في الواقع الشخصيتين الرئيسيتين في القصة، ويشترك معهما عبد الهادي بك والشلقامي، ولذلك ركزت عليهما؛ إذ فيهما تتضح ملامح الفكرة التي يهدف إليها الدكتور الكيلاني وهي: تصوير الحياة التي كان يعيشها السجناء قبل الثورة، وأن العبيد ليسوا هؤلاء السجناء المقيدين بالسلاسل فقط، بل يوجد أناس آخرون خارج الأسوار يتمتعون بالحرية ولكنهم عبيد لأنانيتهم ولجشعهم.. عبيد لأهوائهم وشهواتهم، ومن أجل إبراز هذه الفكرة حشد - بجانب هاتين الشخصيتين - شخصيات ثانوية مثل: "عبد الحميد" و"الشيخ سلامة" زميلي "فارس".. ولقد استطاع الدكتور الكيلاني أن يجعل شخصية الشيخ سلامة الإنسان المجنون تجذب الانتباه وتحظى باهتمام القارئ.. لقد أحسن المؤلف استخدامها في القصة، فهي تعبر عن رأيها تعبيرًا عفويًّا، ولكنه في الحقيقة يدلنا على موطن الداء وسبب المصائب وهو المرأة؛ فهي وراء معظم الجرائم.

وهذه الشخصيات كلها حركها المؤلف تحريكًا دقيقًا دون إخلال أو خلط بينها.. ولقد بيَّن الصفات الجسمانية والخلقية والنفسية والاجتماعية المحددة لكل شخصية، أما الحوار فقد ساقه باللغة العربية في سهولة ويسر.. وكان معبرًا عن لسان حال الشخصيات تعبيرًا واضحًا يتفق ومستواهم الفكري والثقافي، إلا أنني آخذ على المؤلف أنه في بعض المواقف أنطق "فارس" و"عنايات" بفلسفات أعلى من مستواهما الفكري، فنسمع "فارس" يحدث زميله:

- لماذا خلق الله هذا الجبل؟

ورد عبد الحميد في سخرية:

- ليفنى فيه الحمقى من أمثالنا.
- ولماذا خلق المدير..؟

وقهقه عبد الحميد:

- لأنه عندما خلق الكرباج كان لا بد أن يوجد من يهوي به على الظهور.

وصمت برهة، ثم استطرد:

- أنت غبي.. تسأل دائمًا عن أشياء أزلية لا حيلة لنا في تغييرها.

ويتكرر ذلك في مواقف أخرى في ثنايا القصة.

كما أنه ربط بين الوضع في السجن وبين الوضع العام في البلد قبل الثورة.. لقد كان يشيع فيها النفاق والكراهية والتفكك السياسي والاجتماعي؛ فالمرءوس ينافق رئيسه مثل الشلقامي والمدير، والزوجة تخدع زوجها مثلما خدعت "عنايات" زوجها.

هكذا كان مجتمعنا قبل الثورة، والمشكلة الحقيقية ليست مشكلة هؤلاء السجناء فقط بل "إنها مشكلة شعبنا بأسره.. ليس هناك حزب يحب الآخر.. خلاف الرأي معناه العداء.. الموظف يقبل على عمله في ملل.. لا يحب وظيفته.. المرءوس لا يحترم رئيسه.. بل يخافه.. الزوجة قد تداهن زوجها وتظهر العشق ويعلم الله ما في قلبها.. لولا خوفها من حياة الوحدة والتشرد والمصير المظلم في مجتمع يتهم النساء الخاليات اللائي يعشن بلا رجل لكان لسلوكها وجه آخر".

ومن الملاحظ أن الدكتور الكيلاني يعلق على الأحداث ليبين وجهة نظره، ويتضح ذلك عندما كانت "عنايات" تتحدث مع زوجها عن الإصلاح الاجتماعي وما يجب أن يتبع في السجون وتتحدث عن الجريمة والمجرمين.. يعلق في النهاية ليكشف نفسيتها في هذه اللحظة ويبين أنها تخدع زوجها وتوهمه بحبها: "إنها تريد أن تصنع له عالمًا وهميًّا من اليقين والثقة ليحيا فيه غافلاً فتنام عيناه عنها، وتستمتع هي بلحظات الخطيئة، ولا مانع من أن تتهم نفسها بالرعونة والمسلك الحيواني عند الغضب، ومن قلبها الآثم تنبعث دعوات الإصلاح الاجتماعي الضخم".

ولا يفوتني أن أشير إلى الرمز الذي استعمله المؤلف في هذه القصة ويتضح ذلك في الحوار بين الزوج والزوجة بعد اكتشافه الجريمة:

- أتعرفين فارس؟

وصمتت برهة، وكأنما استسلمت لتفكير عميق، وبدت كأنها تستجمع أفكارها وتتــذكر ثم همست:

- من فارس؟
- ذلك السجين الـــ..
- لا أفهم..
- الكهربائي.
- أوه.. تقصد ذلك الرجل الذي أصلح خلل النور ذات مساء؟

قال وهو يرشقها بنظرات كالسهام:

- إنه هو.. لكنه لم يصلح خللاً.. بل أفسد ما لا تستطيع أكبــر قــوة فـــي الوجــود أن تصلحه.

والطبيعة عند المؤلف ليست جامدة، ولكنها حية تحس وتشعر.. فهي هادئة ســعيدة أو حزينة كئيبة أو ثائرة ساخطة حسب الحالات النفسية لشخصيات القصة.

كما استخدم المونولوج الداخلي للكشف عن نفسيات أبطاله وما يدور في أعماقهم مـــن صراع وما يدور في عقولهم من أفكار.

وأخيرًا لقد قدم الدكتور الكيلاني هذه المأساة الاجتماعية، مأساة المسجونين أولاً، ثــم مأساة مجتمعنا كله قبل الثورة في سرد ممتع، ما إن يبدأ الإنسان في قراءتهــا حتـــى تأخــذه القصة في تيار أحداثها المتتابعة المترابطة في بناء قصصي متكامل.